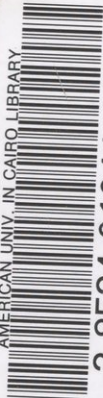


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01041 1431

1
G
1
1



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

The Am



ap
fin

the man that getteth
understanding + + +

PROVERBS 3-13

Ex libris datis

in memoriam

James Molk McKinney

gh, Pennsylvania

DS
126.4
G732
1954



علامہ نفسک

۱۱

اِزْفَعُ دُولًا رَّا تَقْتُلُ عَرَبِيًّا ...!

تأليف

(ع)

لورانس غمرز وولد

أولُ رِسُورْتاجِ رَصِينِ مُنْصِفِ كِتَبِهِ صُجْفِي أَمِيرِكِي
زَارَ الْجَبَهَاتِ الْعَرَبِيَّةِ أَثْنَاءَ حَرْبِ فِلَسْطِينِ وَشَاهَدَ مَا ارْتَكَبَهُ الْيَهُودُ مِنْ فِظَائِعَ

نقله إلى العربية

مُتَرَجِمُ الْعِلْمِ الْبَحَالِي

دار العلم للملايين

بيروت

١٩٥٤

oclc
ocm 72519861

B13810297

14929466

LIBRARY
UNIVERSITY OF MICHIGAN

اسم الكتاب باللغة الانكليزية

THIS SWÖRD FOR ALLAH !

« هذا سيف الله »

By Lawrence Griswold

٩١٥, ٣
ع.ل.ع

جميع الحقوق محفوظة

32729

الطبعة الاولى ، نيسان ١٩٥٤

الطبعة الثانية ، نوار ١٩٥٤

مقدمة

كانت الواقعة التي أثرت في نفسي ، اكثر ما يكون التأثير ، ذلك الصيف من عام ١٩٤٨ ، ان الانباء والتعليقات الخاصة بحروب فلسطين كانت متحيّزة تحيزاً كاملاً . فقد بدا وكأن الصحف جميعاً كان لها مراسلون يمدونها بأحداث القتال من تل أبيب . كان صوت اسرائيل قوياً جداً في الولايات الاميركية المتحدة ، اما صوت بلاد العرب فكان صامتاً .

وكانت هذه الواقعة ابرز ما كانت في زوايا الشوارع في مانهاتن * . فهناك نُصبت مكبرات الصوت على السيارات الكبيرة او على المنابر ، وراحت تخور متوسلة الى الاميركيين ان « يعطوا دولاراً ليقتلوا عربياً » . وأحسب ان ذلك هو الذي دفعني الى ان اتخذ قرارى . فقد أبدع العرب — وهذا ما كنت اعرفه من قبل — مدنيةً وحافظوا على حضارات . اما اليهود فلم يوفقوا الى شيء من ذلك البتة . وانشأت اراجع الصحف والمجلات . فليس من شك في انها كانت مشوقةً الى الوقائع المتصلة بتلك الحرب .

* جزيرة في مدينة نيويورك عند مصب نهر الهودسون . ويبلغ عدد سكانها نحواً من مليوني نسمة . [المغرب]

ولكن انسى لها ان تعرف الحقيقة اذا لم تلم بوجهة النظر الاخرى
المقابلة لوجهة نظر الصهيونيين ؟

وفي ذلك الحين كنت اعمل في «المعهد الآسيوي» في نيويورك،
وهدفاً لسهام الصهاينة ورجال الفكر الموالين للصهاينة . وعندما
أعلنت ان العرب ينبغي ان تكون لهم وجهة نظرهم الخاصة في
المشكلة ، ثارت من حولي ضجة مغضبة تصم الآذان ، وسجل ضغط
الدم عندي ارتفاعاً ملحوظاً . وواضح اني لو بقيت في نيويورك
إذن لما كان ثمة مفر من وقوع واحد من أمرين : إما ان اسمح
لنفسي وللبادئي أن تغرق في تيار يهود نيويورك الغامر النابح ،
وإما ان أتسلح بقذائف قاتلة وأهاجم مكبرات الصوت ، معرّضاً
نفسي للاعتقال والسجن .

وحين أطلعني احد الاصدقاء على اعلان كتبه ودفع اجوره ،
في اغلب الظن ، « بن هشت » - اعلان يقول انه كلما قتلت عصابة
شترن جندياً بريطانياً او رجلاً عربياً « أقام اليهود عيداً صغيراً في
قلوبهم » طفح الكيل ولم أعد أطيع صبراً . كانت ذكرى
« مشروع مورغانتا »* لأبادة المانيا بسبب من سوء تصرف رجل
نساوي مضطرب العقل ** لا تزال عالقة علوقاً كريهاً في ذهني ،
وكان الصهاينة يعملون على تضخيمها وتكثيفها .

صحيح ان اليهود لم يكونوا كلهم مسؤولين عن ذلك . فليس

* هنري مورغانتا الصغير، ناظر المالية الاميركية من ١٩٣٤ - ١٩٤٥ .

[المغرب]

[المغرب]

** يقصد أدولف هتلر .

يغيب عن بالي ذلك الاعلان الذي استغرق صفحة بكاملها من
ال «نيويورك تايمس» والذي ناشد الرئيس ترومان ان يفكر ملياً قبل
ان يقدم على الاعتراف بدولة اسرائيل . وانا أدري ان مئات من
اليهود ، حتى في مدينة نيويورك ، ما كانوا يعطفون على حركة *
بدت لي وهمية وهستيرية كوباء الرقص السنجي (خورزا) الذي
اجتاح اوروبة في القرون الوسطى .

وعلى الرغم من تلك الدعاية الضمأى الى الدم فقد أبيت على
نفسي أن اتعصب لأيّ من اليهود او من العرب . ولكنني كنت
مشوقاً الى معرفة الحقيقة . وكنت قليل الثقة بالمستقبل الهاديء
الوادم كما صورهُ رجال السياسة عندنا ، وكان مستقبل الشرق
الايوسط يهمني شخصياً . ولقد أكدت لي نظرة الى جواز سفري
أنه ما تزال امامه سنة أو نحوها قبل ان يبلغ أجله ويفقد فعاليتة ،
وكان كل ما بقي عليّ ان اعمله قبل القيام برحلي الى الشرق الاوسط
ان اكفل الحصول على شيء من المال يمكنني من تغطية نفقات
الرحلة .

ولم يكن ذلك شيئاً هيناً . والواقع اني حين أعلنت اصدقائي
في الصحيفة وفي اذاعات الراديو بما عزمت عليه من السفر ، اكدوا
لي ان في ميسوري ان اوقع عدداً من العقود الصحفية يعود عليّ
بمكافأة سخية - الى ان اكتشفوا اني اعترمت ان أوجه وجهي
شطر الدول العربية . عندئذ غدت أقوالهم متحفظة حيية ،
وخبا شوقهم وخمد . صاروا يقولون : ولكن هناك عدداً كبيراً

* المراد الحركة الصهيونية . [العرب]

من مراسلي الصحف الاميركية في الشرق الأوسط ، وان وكالات
الاخبار تزودهم دائماً بأوفى الانباء ، وان ثمة ازمة حادة في
الورق ... وعلى اية حال ، فاذا ما كنت اصرّ على الاحتفاظ بهذه
الانطباعة على وجهي فعندئذ ينشأ الاعتراض من شعبة الإدارة .
إذ كيف تستطيع الصحيفة ان تحصل على الاعلانات من المحال
والمؤسسات اليهودية اذا نشرت مادة فيها ضرب من التأييد
للعرب ؟ وأذكر أنني غفمت بكلام يدور حول حرية الصحافة
والرأي التي نعتز بها : ولكن لم يكن ثمة - على الرغم من ذلك -
متسع للافاضة في الحديث ، فبرحت الجريدة مدحوراً .

واياً ما كان ، فقد التمتعت إيماضة من أمل عندما وافقت
احدى محطات التلفزيون على ان تشتري مني بعض الافلام التي
أسجلها في رحلتي تلك ، لقاء ثلاثة دولارات للقدم الواحد ،
واكدت لي ان في استطاعتي ان اطمئن الى اني سأبيعها مئة قدم على
الاقل ، كل اسبوع . وكان ذلك كل ما احتاج اليه . فما كان
مني الا ان اخذت سلفه من المحطة ، واشترت بطاقة سفر ، في
اليوم التالي ، الى البصرة .

وآثرت سفينة بطيئة الى حد معقول لاسباب عديدة . أولها
اني كنت ارغب في ان ألتزم بماجريات التاريخ المعاصر . فمنذ
سنة ١٩٤٥ ، يوم كنت في آسية الجنوبية الشرقية - من الفيليبين
الى تايلند و هندونيسيا - وحتى الاشهر القليلة التي سبقت انسحاب
البريطانيين من فلسطين وانا اكاد لا اعرف عن الاحداث

* سيام .

[المغرب]

التفصيلية التي ادت الى اندلاع نار الحرب بين اسرائيل والدول
العربية إلا قليلاً . وفيما عدا القباحة المثيرة التي تكشف عنها
الخطباء اليهود في زوايا الشوارع النيويوركية لم تكن تعتمل في
نفسي عصبية خاصة . ولكن الاستماع الى خطب هؤلاء البرابرة
كان نادراً ما يكسب المستمعين ويوقع في قلوبهم العطف على
قضية اسرائيل .

واياً ما كان ، فقد كنت في سبيلي الى جزء من العالم لم
تقع عيناى عليه منذ عشرين سنة تقريباً .

لورانس غريزولد

١ . مع مواكب الحضارة

إن تاريخ الحضارة يبدأ مع العرب . فجنة عدن - وفقاً
للكتاب المقدس - تحدها أربعة أنهار هي الفرات ، ودجلة ،
والنيل . أما النهر الرابع فلا يزال الى اليوم مستعصياً على التحديد .
ولكن ثمة شكاً قليلاً في ان كلمة « عدن » هي تحريف للكلمة
السومرية « عدينو » ، وتعني المرج الواسع ، او السهل .

وفيما كانت مصر تناضل ، ما تزال ، من اجل توحيد النيلين
وإنشاء حضارة ما برحت تسحب ذيولاً من المجد الفرعوني ، كانت
« أريدو » و « عكر قوف » السومريتان مدينتين كبيرتين
زاهرتين . وإذ كان نهر الفرات ودجلة يلتقيان شمالي « أور »
ويشكلان نقطة اتصال اخذت فيضاناتها السنوية تدفع بالدلتا في
اتجاه الخليج الفارسي بنسبة نحو من مئتي ياردة كل عام ، فقد
نشأت مدن جديدة حول الارض الحصبة ، وغدت بممالك سومر
المدينية غنية قوية ، ومن ثم ، متبلدة كسولاً .

ولسنا نعرف شيئاً كثيراً عن أولية السومريين . ولكن الشيء
الثابت انهم كانوا غير ساميين . وكانت ارضهم تنبسط ما بين ضفاف
دجلة والفرات وعلى طولها . والواقع انهم كانوا ينعمون في « عدنهم »

تلك عندما برزت اول موجة من موجات الساميين المهاجرين خارج اسوار مدنهم . وما هي الا فترة حتى استولى الرعاة الساميون على سومر ، كما استولوا على فلسطين ، وورثوا عن السومريين اشياء كثيرة منها القناطر والعقود المعمارية والعربات ذوات العجلات .

وحوالى سنة ٢٥٠٠ ق. م . قاد الزعيم السامي ، سرجون الاول ، قواته لقتال السومريين وسحق فيا القهم في سلسلة من المعارك تركت العرب * سادة على البلاد التي انتهت في ما بعد الى ان تصبح « بابل » . وثبتت « نارام سين » ، حفيد سرجون الاول ، هذا الفتح . وشرقت شمس الحضارة العربية التي لا تزال معنا على الرغم من احتجابها اربعة قرون .

واذا كنا نجعل اصل الشعب الذي سكن سومر ، فكذلك نجعل اصل العرق السامي ، على وجه الدقة . فهناك من يقول ان « ابناء سام » هؤلاء قد نشأوا ، اول ما نشأوا ، بين حامي افريقية الشرقية ، ثم انتقلوا الى شبه الجزيرة العربية من طريق باب المندب . وهناك من يقول ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي . والرأي الثاني ارجح . **

وسواء أقدم الساميون من افريقية او من تلال سبأ فقد

* من الواضح ان المؤلف يقصد بالعرب هنا الساميين . ولعله يعد الساميين كلهم عرباً على اعتبار انهم انطلقوا من شبه جزيرة العرب . [المغرب]
** تصرفنا في ترجمة هذه الفقرة على اساس من المصادر التاريخية الموثوقة بسبب من اضطراب الأصل . [المغرب]

انتشروا في داخل الجزيرة من زاويتها الجنوبية والشرقية التي تشكل اليوم مملكة اليمن . ويغلب على الظن ان خط الهجرة كان يمتد بمحاذاة النجد المتاخمة للبحر الاحمر . تلك كانت طريق القوافل القديمة من الصين والهند، والسبيل الوحيدة التي تمتاز ارضها بقابليتها للزراعة ، وبأنها تنبت عشباً تأكله الجمال والحمير والاغنام التي تؤلف الى اليوم عماد الحياة الاقتصادية عند البدو ، أو عرب الصحراء .

وينبغي ان تكون القبائل السامية المنتشرة في الارض قد انحرفت - عند موقعي مكة والمدينة الحاليين - في اتجاه الشرق والشمال الشرقي ، عبر السهوب الوسطى وعبر أودية الجبال ، نحو الخليج الفارسي . في حين اتجهت قبائل أخرى نحو ذلك الصّدع الجيولوجي الهائل الذي ينتظم البحر الميت ووادي الاردن الذي يُعرف اليوم بوادي عربة .

وفترة التوسع هذه من هضاب اليمن الى «فلسطين» التي حرّتها الرومان الى «فلسطين» استغرقت - من غير شك - نحواً من ألف سنة كاملة . وفي وقت ما من هذه الفترة الألفية انفصل اسلاف اليهود ، في ما يبدو ، عن الجذر السامي . ولسنا ندري السبب الذي ادى الى هذا الانشقاق . وارجح التعليلات لهذا الحدث ان العبرانيين كانوا اقل ميلاً الى التحضر والاستقرار من سائر العرب فهم يعمنون في الترحّل مع مواشيهم ، وأقل انصياعاً للمواضع التي تنشأ دائماً مع البيت والعمران البشري . وهكذا عبر هؤلاء المهاجرون المغامرون ، المتمردون ، شبه جزيرة سيناء الى مصر

حيث ترك اثرهم في النظام المصري الاجتماعي طابعه على التاريخ .
وقبل ابراهيم ، الأكدي الأوري ، بفترة طويلة هبط الرعاة
العبرانيون دلتا النيل الحصينة واخرجوا الفلاحين المصريين منها .
ولم تكن مصر آنذاك دولة قوية . فبعد أسرة « آختوي » التي
حكمت البلاد حكماً ضعيفاً من سنة ٢٢٧٠ الى سنة ٢٢٢٢ ق.م
عرفت مصر عهداً من الحروب الداخلية اشاع فيها الفوضى وحرماها
من حكومة مركزية قوية . وقد نتج عن ذلك ان اجتاحت الغزاة
الساميون المدن القائمة في دلتا النيل ، وخضعت مصر نفسها لسلطانهم
عندما بدأ حكم الهكسوس (الملوك الرعاة) وخلفائهم الذي دام
خمسئة عام .

ولم يكن ليحيط بهم ، بادىء الامر ، شيء من أبهة الملك
وجلاله . وقد قال المؤرخان المصريان « إيبووار » و « مانيثو »
إنهم سوقوا أخسنة سدوا منافذ الشوارع وافسدوا لغة مصر .
وأياً ما كان ، فقد استولى هؤلاء السوق على زمام السلطة المدنية ،
ونهبوا الاغنياء وأخرجوهم من بيوتهم . ثم إن انهيار البنية
الاجتماعية كلها وموجات طامية من المجاعة أكملت عمل الغزاة ، فلم
يجدوا ، حين اقاموا عاصمتهم في ممفيس ، آخر الامر ، غير مقاومة
ضئيلة . وفرض ممثلون لست أسر حاكمه سلطانهم على نواح من
مصر مختلفة قبل ان توفق قوات مصر الجنوبية الى اخراج الهكسوس
من البلاد . ويذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس ان جيش الهكسوس
طورد على محاذاة البحر الاحمر ، قرب البحيرات المرة في اغلب
الظن حيث كانت المياه ضحلة ، وإلى سيناء . وينص هذا المصدر

على ان عدد افراد ذلك الجيش المنهزم بلغ مئتين واربعين ألف رجل ، وأنهم «استقروا في بيت المقدس وأسسوا مملكة يهوذا» .
ويحسب بعض المؤرخين ان هذا الجلاء الأجماعي هو الاصل لقصة خروج بني اسرائيل من مصر كما وردت في الكتاب المقدس . في حين يُنكر بعضهم الآخر ذلك . وإياً ما كان ، فقد خضعت بيت المقدس (اوروشليم - اوروشاليمو) وغيرها من المدن الفلسطينية او الكنعانية لسلطان اليهود حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م . وهو تاريخ يكاد يتفق وظهور دعوة إخناتون الوحداية في مصر . وليس ينبغي ان يُظنّ ان هذا الجيش المفكك المهزوم المطرود الى صحارى سيناء وجبالها شنّ غارة مباشرةً ومظفّرة على ارض كنعان . فلعلّ قرناً كاملاً من الزمان انقضى قبل ان يوفق حفدة ملوك الرعاة هؤلاء الى ان ينتهوا الى ارض اللبن والعسل ، ليجدوها قويةً حصينةً ، وليقرروا الإقامة خارج اسوارها في انتظار الفرصة السانحة .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان طوقت قوة من المصريين المستعمرات العبرانية واسرت اهلها ، انتهت المبادئ الدينية الجديدة القائلة بالآله واحد وبتساوي الارواح في عالم آخر ، الى شعب كان يكره تقديس «الابعال» المحليين في كنعان كرهاً طبيعياً ، فاذا هو على أتمّ ما يكون من الاستعداد لقبول دين يجحد المعبودات الخرقاء الثقيلة الوطأة وينكر ان تكون للاغنياء أيما ميزة على الفقراء ، بعد الموت . وجائز ان يكون الدين اليهودي ، وهو دين عملي بأكثر مما ينبغي بالنسبة الى شعب مترحل ، قد نشأ عن هذه

العقيدة المصرية. والشيء الذي لا ريب فيه ان مزامير داود وترايم
 اخناتون تتشابه تشابهاً كبيراً جداً . وفي كتابه «فجر الضمير» قدّم
 الدكتور جيمس بريستد ترجمات متوازية تؤكد هذا الاحتمال .
 وهكذا ففي مستهلّ القرن الثالث عشر ق.م كان العبرانيون
 قد مكثوا لانفسهم في ارض كنعان ، فيما بلغت الحضارة العربية
 في بابل (باب الآله) اوج مجدها وشرعت تنحدر بعض الشيء .
 وكان عهد حمورابي الملك الاموري (١٩٤٨ - ١٩٠٥ ق.م) قد
 اعطى القوم شرائع شهيرة ، وعُني بأعادة التحريج ، ودشن
 برنامجاً للري جعل من الطرف البابلي من الهلال الحُصيب الجزء
 الاكثر غنى وإخصاباً من نصف الدائرة العربية كلها التي تؤلف
 غياض فلسطين طرفها الاقصى الآخر . ومن نواح كثيرة كانت
 بابل حمورابي مدينةً عصريةً الى حد يثير الدهش . فقد كانت المدينة
 تنبسط في محاذاة الفرات العظيم وقد نهض « شارع المواكب »
 العريض على موازاة النهر تحيط به ابنية ضخمة عالية تتوّج الجنائن
 والاشجار كثيراً منها .

وكان «باب عشقوت» الحصين الذي تحميه سلسلة من الاسوار
 مزخرفاً ملوّناً ومحليّ بنقوش رائعة تمثل ضروباً من الحيوان .
 وكان هيكل مردوخ العظيم ، المعروف ببورج بابل ، يرتفع فخماً
 جليلاً في « الحي المقدس » في الطرف الجنوبي من العاصمة . وكان
 يصلها ببابل الغربية ، وهي ضاحية تقع وراء النهر ، جسرٌ لا
 تزال دعائمه راسخةً في اعماق النهر . وفي فترة متأخرة كانت ثمة
 طريق تمتد تحت الارض على طراز « نفق لنيكولن » أنشئت على

ما يظهر في عهد الملكة سميراميس نصف الاسطوري . وليس من ريب في انها كانت عملاً رائعاً من اعمال الهندسة لان تدفق الفرات وعمقه يجعلان منه نهراً أعنى وخطر من نهر الهدسون في نيويورك . حتى اذا حكم الكلدانيون بابل تقلصت رقعتها تقلصاً كبيراً بسبب من غارات الحيثيين والاشوريين عليها . لقد ظلت سامية ولكن حكامها الآن كانوا جماعة من التجار . والواقع ان مآثر بابل الثانية هذه في ميدان الحضارة كانت لغوية وعلمية . ففي ظل الكلدانيين حلت اللغة الآرامية محلّ العبرية حتى لقد استعملها اليهود انفسهم في معاملاتهم اليومية ، وولدت الابجدية . واصطنع العلماء الكلدانيون المعارف الفلكية التي ورثوها عن كهـان مردوخ وعشتروت ، إله الشمس وإلهة القمر ، لكي يحسبوا سائر النجوم ويخترعوا نظاماً جديداً للكشف عن المستقبل 'عرف آخر الأمر بعلم التنجيم .

وفما كانت بابل الكلدانية - وقد غدت الآن طوال خمسة قرون مرزبانيةً فارسية - تعبد آلهتها وتقيم علاقات تجارية مع الهند والاراضي الواقعة وراء البحار الشرقية ، ومع مصر ، ومع اليونان والبلدان الخاضعة لرومة ، كان اليهود يحيون في يهوذا حياة قلقه مضطربة . فقد كانت المملكة القصيرة الأجل التي نحتها يشوع من عرب فلسطين ومكّن لها الملك داود قد انقسمت على نفسها بعد موت الملك سليمان ، وغرقت البلاد في بحر من الدماء بسبب من الحروب الاهلية المهلكة ، والغارات الخارجية ، وكانت آخرها تلك التي شنتها كتائب رومة . وقاوم العبرانيون ، ولكن

مقاومةً غير كافية ، وبسطت رومة سلطانها على فلسطين باستثناء بعض الحصون الطبيعية التي لا تُقهر من مثل مدينة البتراء النبطية (العربية) وغيرها .

واستُهلَّ التاريخ المسيحي في اعقاب قرنين اثنين من حروب العصابات ايضاً . ذلك أن ما يُعرف بالحروب المكابية لم يكن اكثر من سلسلة من الغارات الطارئة شنتها على المدن الخاضعة لاحتلال الرومان عصابات مسلحة من متعصي اليهود . والحق ان هؤلاء المسلحين اذكوا هبستيريا العصر الجماعية ، وبخاصة في ما بين اليهود ، بما قاموا به من غارات ليلية لا تعرف الرحمة أو الاستبقاء ، على المدن ، وعلى خزائن الدولة ، ودار الصناعة (مصانع السلاح او مستودعاته) ، ومن اضرار النار في البيوت ، وذبح « المتعاونين » ، ثم الانكفاء تحت جناح الظلام . واياً ما كان ، فقد وفق الفرسان الرومان الى ان يضعوا آخر الأمر حداً لهذه الحال .

واعتبر الاتقياء من يهود فلسطين الغزو الروماني للديار المقدسة اهانةً لـ « يهوه » . فقد كان رومان ذلك العهد يعبدون مجموعة من الآلهة والألاهات ، بعضها يوناني وبعضها مصري . واذا كانت عبادة إيزيس — وهي عند المصريين بمثابة عشتروت عند الساميين — بغيضة الى قلوب اليهود ، فقد أولع بها الرومان ولوعاً كبيراً . وسرت بين اليهود نبوءةٌ تقول بأنهم سوف يستعيدون قوتهم ، وبأن رسولاً من رسل يهوه سوف يعيد مجد داود القديم . وفي السنوات التي عقت الحروب المكابية أخضعت كل إشارة وكل فإل لامتحان دقيق ، ودُرست كل حادثة غير سوية من أحداث

الطبيعة لتقرير ما اذا كان يوم المسيح قد آذن بالانبلاج . لقد ظهر عددٌ كبير من الدجالين ، طبعاً ، ولكن ارتقَاب رسول يهوه ما فتى يشغل الناس في فلسطين ويصبغ حياة اليهود فيها بصبغة خاصة .

وكان بيلاطس البنطي يحكم فلسطين عند مفتتح الحقبة المسيحية . ذلك كل ما نعرفه من التاريخ . والواقع ان وجود يسوع ، ابن يوسف ، وحياته إنما يأخذان في الانبثاق حوالى القرن الثالث بعد الميلاد مع أسفار الانجيليين الأربعة . وكانت عقيدة التوحيد قد تسرّبت في ذلك العهد الى شبه جزيرة العرب ، والاراضي المحيطة بالخليج الفارسي . وبقدر ما كانت حياة يسوع التاريخية غامضة كانت حياة محمد قطعةً من التاريخ . فقد كان محمد الذي قدّم لقومه القرآن - وهي كلمة لا تعني شأن كلمة Bible غير « الكتاب » - من بيت هاشم من قبيلة قريش الحجازية . وكان في اول امره يرعى الغنم ثم تزوج من أرملة اسمها خديجة . وقد بسط سلطانه على شبه الجزيرة كلها تقريباً . حتى اذا توفي وفق خلفاؤه الى ان يوسّعوا دنيا الاسلام - خلال قرن واحد ليس غير - فهي تمتد من جبل طارق الى المحيط الهندي .

وقبل عام الهجرة ، الذي يُستهلّ به التقويم الاسلامي ، شقيت بابل بعدد من الفتوح غير السامية . وفي فلسطين ، استؤنفت حرب العصابات اليهودية بعد سقوط أسرة هيروودس ، ثم تطورت سريعاً الى حرب أهلية اشترك فيها الفريسيون والصدوقيون وبعض الجماعات الدينية المنشقة . وكان الامبراطور

الروماني فسبازيان سعيداً بأن يدع هذه الفرق المتنازعة يُفني بعضها بعضاً ، مترقباً الفرصة المناسبة للافادة من الوضع . واخيراً استولت القوات الرومانية على اوروشليم وأطلق عليها اسم « آليا كابيتولينا » Aelia Capitolina .

وحوالى السنة ٧٠ ب . م . كان اليهود في فلسطين في حال بشعة من التفكك والفوضى . وكان العرب الأيدوميون يشكلون منذ زمن طويل أقوى شعوب فلسطين غير اليهودية . وبتدمير هيكل هيرودس لم يبق لليهود مركز ديني يجمع شملهم . واستمرت حرب العصابات وامتدت الى الخارج . وفي بلاد الرافدين اجرى اليهود مذبحه ذهب ضحيتها جماعة من العرب وغيرهم ، فما كان من الامبراطور تيطس الا ان انتقم من اليهود انتقاماً عاجلاً ودمر اوروشليم تدميراً .

وبعد قرن من الزمان شهدت فلسطين عهداً جديداً من الفتن والحروب . ولم تنقض هذه الفترة الا بعد سلسلة من المعارك الدموية . وحُظر على اليهود الباقين في فلسطين الدخول الى اوروشليم مهما تكن الظروف . ويذكر ديو كاسيوس ان اليهود خسروا ٥٤٠,٠٠٠ رجل في هذه الحروب ، عدا الآلاف الاكثر عدداً من اولئك الذين قضوا بالاوبئة والجماعة . وعندما بزغ فجر القرن الثالث للميلاد لم يكن في فلسطين كلها غير قلة قليلة من اليهود . والواقع ان هجرة اليهود الاختيارية من فلسطين ابتغاء التجارة او التماساً للأمن لم تخلّف وراءها غير عدد قليل من القرى الممتناثرة ، ولكن كل مرفأ من مرفأى البحر الأدرياتي والبحر

الابيض المتوسط اخذ نصيبه من المهاجرين . ووجه آلاف من اليهود وجوههم الى بابل ، وشخص آلاف آخرون الى بلاد العرب . ولكن النفوذ اليهودي في فلسطين الذي فرض نفسه في فترات متباعدة على سامي الطرف الغربي من الهلال الخصيب أصبح خبيراً ماضياً .

ومن هذه الخلاصة الموجزة ، ولكن الصحيحة الدقيقة ، للاحتلال اليهودي لفلسطين ، يدرك القارىء ان دعوى الصهيونيين بان يكون ذلك القطر وطناً قومياً لهم إنما تستند إلى عهد شفهي خرافي أعطاه يهوه لموسى . والواقع ان البروفسور آلبرايت ، أحد كبار الثقاة العالميين في تاريخ فلسطين القديم ، ينص في وضوح لا يحتمل اللبس على انه ليس في فلسطين أي آثار يهودية ترجع الى ما قبل العهد الروماني الانطوني . قال * : « كان كثير من العلماء يعتقدون - قبل أن يبسط كول Kohl وواتزنجر Watzinger ومن بعدهما سو كينيك Sukenik نتائج أبحاثهم - أن بعض الكُنُس الخربة في الجليل ترجع الى عهد المسيح ، قبل الثورة الاولى . اما اليوم فلم يبق أي أثر في ان هذه النظرة كانت خاطئة ، وفي أنه ما من أثر باقٍ ، في فلسطين ، يرقى الى ما قبل العهد الانطوني على ابعد تقدير . »

ويزعم الصهاينة أن ما يدعى « حائط المبكى » هو بقية من هيكل سليمان . وهو زعم باطل لأن الحائط غرائتي ، وهيكل سليمان إنما بناه الفينيقيون من خشب الأرز . ويكاد يكون من

* W. F. Albright. *Archaeology of Palestine*, 1949.

الثابت اليوم ، عند العلماء ، ان ذلك الجدار جزء من الهيكل الذي بناه
حوالي سنة ٢٠ ق. م. هيودوس الكبير ، الأيدومي ، الذي اعتنق
اليهودية لأغراض سياسية * وهكذا فان المسجد الأقصى ، وقبة
الصخرة ، وقبة السلسلة هي وحدها ، بين آثار فلسطين ، التي ترقى
الى ما قبل الاحتلال الصليبي للبلاد .

وفي بابل عرفت السلطة السامية أياماً عسيرة ، على الرغم من ان
عهودها كانت آمنة اذا قيست بالعهود التي مرت بها فلسطين .
وهكذا خضع الكلدانيون أولاً لحكم الفرس ، ثم خضعوا في
القرن الثالث قبل الميلاد لحكم الاسكندر المقدوني .

وأخيراً اخلى المقدونيون محل السلطة للفرس الأرساكين
الذين بنوا القصر العظيم في المدائن وأنشأوا امبراطورية قدّر لها
ان تخوض الحرب ضد رومة . وكانت مصر قد غدت هيلينية بعد
أن غودر احد قواد الاسكندر ، بطليموس ، حاكماً على
الاسكندرية . واستعادت شبه الجزيرة العربية ، التي خضعت فترة
قصيرة لسلطان الفرس ، استقلالها . وحين هزم المقدونيون داريوس
الثالث انقطعت هدية اللبان نفسها . ولكن حتى في بابل كان
السكان الكادحون الناجحون لا يزالون ساميين عرباً : زراعاً
ورعاةً وشعراء وعلماء وتجاراً لم ترعجهم سلطة الساسانيين النائية ،
وكان مقرها الآن في انطاكية السورية .

وفي كل مكان كانت ادیان في دور الاحتضار . فقد ماتت
الزرادشتية ، بوصفها ديانة عالمية ، مع داريوس الثالث . والميثولوجيا

* المصدر السابق نفسه .

الهيلينية التي اشرفت على الموت في بلاد اليونان لم تصل الى رومة
سليمة لم تمس . وكان الرومان يستوردون آلهة جديدة من مصر
وسورية ، فحلّ تموز ، ومثراس ، وايزيس محلّ أبولو وفينوس ،
الى حدّ بعيد . وفي مصر ، اعتنق الاقباط النصرانية ، في حين
أحال جنود رومة الوثنية آلهة مصر وإلهاتها الى خرافة ، في ما
بين عشية وضحاها تقريباً .

وفي الجوّ المضطرب الذي عاشت فيه رومة المتداعية الى السقوط
اضطهدت النصرانية وأخصبت بسبب من هذا الاضطهاد نفسه .
ودخل في الدين الجديد آلاف من الجنود والمهاجرين الاوروبيين
والبلقانيين . ولكن بالرغم من كل ما حققته النصرانية من تقدّم
فقد ظلت الحقة على العموم غنوسمية لا أدريّة .

وكان تأثير الاسلام في عالمٍ مثل هذا متورّد متونجٍ حاسماً
جداً . كانت الامبراطوريات القديمة قد تقوضت . وكان الفرس
قد حلّوا محلّ اليونان . وحلت رومة محلّ امبراطورية الاسكندر .
ولئن ألحق الاسكندر العروش الشرقية بامبراطوريته ، لقد
انحصرت اعظم انتصارات رومة في اوروبة نفسها . ولم تعد مصر ،
بعد ان جثم على حدودها عدوّ قوي ، دولة يُخشى بأسها . وفي
بيزنطة ، كانت الامبراطورية الشرقية قد جنحت الى الأفول ،
وكانت عظمتها قد انتهت الى ان تصبح جوفاء بالفساد .

ومن شبه جزيرة العرب كان ينطلق إعصار . كان محمد قد
هاجر من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢ م . وكان قد انتصر على

الوثنيين في موقعة بدر (رمضان سنة ٦٢٤) فدخل العرب في الدين الجديد افواجاً افواجاً .

ومن ذلك الحين حتى سنة ٦٣٢ م . التي توفي فيها محمد تمّ توحيد الحجاز بعد أن دُلت العقبات القائمة دون ذلك واحدة اثر واحدة . وفي هذا العهد نشبت مناوشات كثيرة بين محمد واليهود بسبب من تأمر هؤلاء مع عدد من القبائل الوثنية عليه . وكان من نتائج ذلك ان مُزقت ثلاث عشائر يهودية ونُفيت من الحجاز .

وفما كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية وبقايا رومة نفسها تحلم بالسلطان المستعاد كان محمد قد صهر العرب في شبه الجزيرة الكبرى في بوتقة إخاء جديد . ذلك بأن اوثق الروابط العربية كانت تقوم ، من قبل ، على اساس من القبيلة والعشيرة . فلما بزغ فجر الاسلام تسامت عقيدته فوق هذه النظرة الضيقة واعلنت ان المسلمين كلهم اخوة . وفجأة نعمت بلاد العرب كلها لا بصلة نسب جديدة ، وبأيمان جديد فحسب ، بل بطريقة في الحياة جديدة بالكلية ايضاً . وليس في الاسلام هياكل مقدسة ، ولا مذابح كنسية ، ولا كهنوت . فالمسلمون يجتمعون في المساجد حيث يصلون ويتعلمون ويتناقشون . وأئمتهم رجال دين وقادة في وقت معاً . انهم يعلمون رعيّتهم الفروسية ، ويحاضرونهم في القرآن ، وينفذون الشريعة المدنية كما نصّ عليها كتابهم المقدس . وفي غضون عشر سنوات ليس غير غدت العربية السعيدة ، او ارض الملوك ، ثيوقراطية دينية كل الناس فيها متساوون ، تحت راية الله .

وخلف النبي العربي، بعد وفاته، أبو بكر الصديق. وكانت حروب الردة، ولكن أبا بكر وفق إلى القضاء على الفتنة في سرعة بالغة. فلم ينقض عهده القصير (٦٣٢ - ٦٣٥) حتى غدا سيداً على شبه الجزيرة كلها.

وبعد موت الخليفة الأول انطلق العرب إلى خارج الجزيرة، ففتحوا سورية والعراق وفارس ومصر وليبيا وأنشأوا قوة بحرية ذات شأن.

ثم انهم اندفعوا، في اتجاه الشرق، إلى سمرقند، بل إلى حدود الصين. وغزوا الهند وضافوا إلى إمبراطوريتهم باكستان الحالية وأفغانستان وجزءاً كبيراً من كشمير. وفي اتجاه الغرب انطلق الفرسان العرب وقوات الاحتلال التي تقلها الأساطيل البحرية من ميناء قرطاجة (قرب تونس اليوم) وهبطوا أرض إسبانية سنة ٧١١ م. وغزا العرب فرنسا أيضاً، ولكنهم هزموا آخر الأمر في تور، غير بعيد جداً عن باريس، على يد ابن غير شرعي لـ «بيبين هيريسنال» «الزعيم الرايني» يدعى كارل، ومن ثم عُرف بشارل مارتل (شارل المطرقة).

ومن ذلك الحين ارتدت جيوش العرب والمسلمين، شيئاً بعد شيء، إلى إسبانية. وحكم العرب تلك البلاد كلها، طوال قرون عدة، باستثناء جزء صغير منها. وفي أواخر القرن الثامن كان الإسلام يسيطر على بحار العالم المعروف آنذاك وعلى شواطئ البحر الأبيض من أعمدة هرقل (جبل طارق) إلى الجبال العالية المتاخمة لبلاد التبت. وكان العباسيون قد خلفوا الأمويين،

واقاموا عاصمتهم في بغداد .

ومنذ انشاء بغداد ، المدينة المدوّرة ، سنة ٧٦٢ الى منتصف القرن الثالث عشر وعالم الثقافة مستمر كزّ في الديار الاسلامية . ففي أيما مكان آخر من اوروبة وآسية لم يكن غير جثة «السلم الروماني» البالية . وفي الهند والصين ، وفي مكسيكو وبيرو ، تقاثلت فرق وطوائف وتفلسفت ثم خضعت لسلطان شعوب مجاورة تنزع الى الحرب اكثر مما تنزع الى الفلسفة . اما في سمرقند وحلب ، وفي دمشق وبغداد ، فنهضت الجامعات ، واقبلت وفود الطلاب من الشرق ومن اوروبة ليدرسوا الفنون والعلوم التي ما كانت تُدرّس في أيما مكان آخر .

وما الذي حلّ باليهود خلال هذه القرون ؟ كانت معظم الذين لم تتمثلهم الامم الاخرى يقيمون في فلسطين . فقد كان الحكم البيزنطي اقلّ خشونة من الحكم الروماني ، وكان عدد اليهود اقلّ من ان يساعدهم على تحدّي سلطان الدولة . وهكذا افتتحت ابواب اوروشليم في وجوههم ، ككرة أخرى ، وانصرفوا الى حراثة الارض في قراهم ، وبنوا عدة كنّس واعتصموا بمجبل السلم .

أما خارج فلسطين فأنا اليهود المتناثرين الذين اتبعوا غرائهم التجارية وقصدوا الى شواطئ افريقية الشمالية فأقام بعضهم هناك ولحق بعضهم بالراية الاسلامية الى اسبانية والبرتغال . واستقر كثير من اليهود في بغداد حيث درس اولادهم مع الفرنجة والايطاليين واليونان في جامعة «المستنصرية» . في حين نزل آخرون ربوع

اليمن وإيران والهند .

وفي الشمال كسبت اليهودية موطناً جديداً . ففي إمارة
« كييف » القوطية القائمة على الدنيبر ، وعلى شواطئ البحر الاسود
وبحر قزوين كان برابرة الروسيا - المنهمكون حديثاً بتجارة
ازدهرت سريعاً بعد ان سيطر المسلمون على الطرق التجارية بين
الصين والهند والغرب - قد ضاقوا ذرعاً بأديان ليس لها
جدور محلية .

وكانت إحدى هذه القبائل ، الخزر ، تقيم في الشواطئ
الغربية من بحر قزوين ، وكانت ذات عدد وبأس . وإذا كان
المسلمون يحيطون بها من جانب (في فارس) والمسيحيون من
جانب (في بينزطة) فقد أبى زعمائها ان يغضبوا ايأاً من الفريقين .
حتى اذا اكتشفوا ديانة ثالثة تدعى اليهودية اتخذوا من يهوه الههم
لهم ، وأعادوا تسمية رعاياهم الذكور وفقاً للنوع واللقاب
الواردة في التوراة .

وكان السلاف الكييفيون الخاضعون لسلطان فلاديمير بعيدين
عن شقي الرحي - الهلال والصليب - حتى إذا كرهوا آلهتهم
القديمة وملئوها لم يتعين عليهم التزام الحيدة الكاملة . وتذهب
الاخبار الى ان جماعة من الخزر الداخلين حديثاً في اليهودية ،
والذين انتهوا الى ان يصبحوا حاخامين ، وفدوا على كييف
ليقنعوا السلاف باعتناق دين يهوه ، فسألهم الامير الروسي :

« اين بلدكم ؟ »

فأجاب الحاخامون :

« اوروشليم مدينتنا . »

فقال فلاديمير :

« ولماذا لا تعيشون في مدينتكم ؟ »

وأوضح الاحبار ان الالههم يهوه غضب عليهم وطردهم من ديارهم . وعندئذ قال فلاديمير إنه لا يستطيع ان يطلب الى الشعب الروسي الايمان باله قد يفقد اعصابه في كل لحظة ويطردهم من اعظم واغنى بلد في العالم . *

وإثر هذا الاخفاق اقبلت على كييف وفود اسلامية وبيزنطية . وأخيراً اختار فلاديمير النصرانية ديناً لشعبه لأن امرأته ، فيما يقال ، كانت بيزنطية . وإياً ما كان فقد تقبل ابناء كييف المتنصرون حديثاً الصليب ، فدحرجوا تمثال « بيرون » (الهه العواصف) الذهبي الفضي الضخم الى نهر الدنيبر وألقوه في مياهه الموحلة .

وفي ما هو اليوم كازا كستان السوفياتية الغربية قدّر لليهود الحزر غير الساميين - وكانوا حتى قبل دخولهم دين يهوه قومياً عنيدين عدوانيين وتجاراً بارعين - ان ينتشروا في اوروبة ، وان يطالبوا آخر الامر بفلسطين وطناً قومياً لهم ، وهي ارض لم يعرفها اسلافهم القدماء على الاطلاق .

وفي الوقت نفسه كانت الغيوم قد اخذت تتلبد فوق « دار الاسلام » . ففي اوروبة حوّل الصراع بين الكنيسة والدولة الى حرب مقدسة ضد المسلمين المسيطرين على فلسطين . وانما خاض نبلاء اوروبة غمار هذه الحرب بدافع من القلق والامل في الغنيمة

* Hyde, «Russia, Then and Always ». 1944.

بقدر ما خاضوها بدافع من الحمية الدينية ، فغادروا بلدانهم واقطاعاتهم
ورهنوها في كثير من الاحوال لدى الكنيسة ، ليحملوا الصليب
ويقودوا الى الارض المقدسة . وهكذا نشبت حروب دامية
باهظة النفقات لم يُفد منها احد من الناحية المادية غير حاملي صكوك
الرهن . ومن ناحية ثانية ، كان لهذه الحروب فائدة كبيرة ، لان
الصليبيين العائدين الى اوروبة حملوا معهم انماطاً من الثقافة عجلت
بمخروج الغربيين من دنيا القرون الوسطى .

ونكسب العالم الاسلامي ، بالإضافة الى الحروب الصليبية
(١٠٩٧ - ١٣٥٠) بالغزو المغولي . ففي سنة ١٢٥٨ حاصر
هولاكو بغداد واستولى عليها بعد ان ذبح ما يزيد على
ثمانين الف بغداديّ وقُتل الخليفة العباسي . ومن
سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٥٠٠ حكم المغول بغداد والعراق ،
ولكنهم كانوا قد غدوا مغولاً متعربين . وفي عام ١٥١٦
فتح العثمانيون خرائب « دار الاسلام » . وعلى الرغم من دخولهم
في الدين المحمدي لم يوفقوا الى اعادة الثقافة الاسلامية الى سابق
مجدها . وطوال اربعمئة عام حُجب العرب ، وحُجبت علومهم
وآدابهم ، بدروع الاتراك - وهم شعب عمليّ يعوزه الخيال -
الكشيفة القاسية .

وثار العرب غير مرة على الاتراك . ولا تكاد توجد مدينة
عربية كبرى ليس فيها ساحة شهداء نُصبت المشائق التركية
فيها كوسيلة سرمدية الى إطالة اجل الحكم العثماني الفاسد .
ولكن العرب لم يلهجوا بصيصاً من أمل الا عند

اندلاع نار الحرب العالمية الاولى. وعندئذ وجهت بريطانية آثاريًا شاباً يدعى توماس لورانس - وكان الجيش قد ابنى قبوله لقصر قامته - لكي يراقب اعمال الفرسان العرب الذين كانوا يقضون - تحت زعامة الامير فيصل ابن الشريف حسين - مضاجع القوات التركية في الحجاز العربي .

وأعجب لورانس بالمعنوية العربية ، وأقنع الشريف حسين بالتحالف مع بريطانية ، على ان تكفل هذه الاخيرة قيام دولة عربية مستقلة بعد الحرب . وكان لورانس خالي الذهن بالكلية ، آنذاك ، من اتفاقية سايكس بيكو السرية بين لندن وباريس ، تلك الاتفاقية التي قسمت الاراضي العربية الى منطقتي نفوذ احدهما بريطانية والاخرى فرنسية . وطرد العرب القوات التركية من فلسطين وسورية والعراق ، تساعدهم في بعض الاحيان ، قوات بريطانية . ولكن ما إن اختار الشريف حسين ابنه فيصلًا لعرش سورية الكبرى في دمشق حتى كانت عصبة الامم قد عهدت الى فرنسة في الاشراف على سورية ولبنان . وفي تموز ١٩٢٠ أخرج الجنرال غورو ، المقطوع إحدى الذراعين ، تدعمه الدبابات الفرنسية ، القوات العربية من دمشق . أما فلسطين وشرقي الاردن والعراق فتولت بريطانية الوصاية عليها .

٢ . من نشوء الفكرة الصهيونية الى دير ياسين..

ليس من العسير على المرء ان يفهم ذلك الوهم المنتشر أعظم انتشار بين اليهود وغيرهم والقائل بأن يهود جعل أرض الميعاد « رهنًا » لجميع اليهود في العالم ، سواء أكانوا يرقون آخر الأمر الى العبرانيين أم لا . فبالنسبة الى كثير من اليهود الواعين أحسن الوعي أصلهم الحزري مثلاً شجعت فكرة « الوطن الروحي » في فلسطين الوهم الزاعم بأن لهم حقوقاً شرعية في تلك الديار . والحقيقة الواضحة تحتم علينا القول بأن سيادة العبرانيين القصيرة على فلسطين لا تمنحهم من الحقوق فيها غير جزء مما تمنحه سيادة العرب والفرس والرومان على الديار المقدسة من حقوق . بل انها لا تمنحهم حقراً تتساوى وحقوق الصليبيين الاوروبيين أنفسهم . والى ذلك ، فقد كانت طبعاً حقيقة إضافية وهي أن فلسطين كانت أهلاً بالعرب المصريين الذين ترجع ملكيتهم للأرض الى القرن السادس عشر . والواقع ان التنكّر الفجائي للحقوق الطبيعية واخراج الشعب الذي يملك الأرض ويحراثها من دياره ليس الا من عمل الساسة المتعويدين التصرف بما يملكه الآخرون ، واليهود الذين اكتسبوا تفكيرهم وأخلاقيتهم من الاحياء القذرة التي اقاموها

لأنفسهم في أوروبا الشرقية. لأن اليهود هم الذين خلقوا الأحوال السائدة في أحيائهم الخاصة Ghettoes ، لا أحد غيرهم . وبدأت الحملة الصهيونية بنشاط يهودي نمسوي يدعى ثودور هيرتزل ، Herzl ولكنها شأن معظم الحركات لم تكن غير التنسيق الأخير لعدة محاولات سابقة .

وفي أواخر القرن التاسع عشر أعان يهودي الماني يدعى البارون موريس دي هيرش Hirsch جمعية الاتحاد الاسرائيلي العالمية (آليانس) في باريس والجمعية الانكليزية اليهودية في لندن على انشاء مستعمرات يهودية في كندا وجنوبي افريقية وغيرهما . وكان من انصار هذه الحركة الكولونيل غولد شيمت Goldschmidt الذي اقترح انشاء ميليشيا يهودية لاستعمار فلسطين .

ومهما يكن من أمر فإن ثودور هيرتزل ، الصحافي النمسوي ، يُعتبر ابا الحركة الصهيونية الرئيسي ، على الرغم من ان المحاولات لأنشاء دول يهودية مستقلة خارج أوروبا لم تنقطع طوال قرون ثلاثة سبقت دعوته . ففي سنة ١٥٦٦ فاوض يهودي اسباني برتغالي (ولعله ان يكون سامياً) يدعى دوم جوزيف ناسي Nasi السلطان العثماني لكي يمنحه ارضاً قرب بحيرة طبريا رجاء ان يجعل منها وطناً قومياً في المستقبل . وفي سنة ١٦٢٥ قدمت شركة جزائر الهند الغربية الهولندية مقاطعة كبيرة من جزيرة كوراكاو الى جماعة من اليهود الهولنديين ليعمروها ويستقروا فيها . وانشأ اوليفر كرومويل مستعمرة يهودية في ما عُرف بعدُ بمستعمرة سورينام الهولندية . وانما كان ذلك على سبيل المقايضة بجزيرة

مانهاتان ، وهي واقعة تاريخية لا تخلو من سخرية !
وفي سنة ١٦٥٩ أنشأ الفرنسيون مستعمرة يهودية في كاين عاصمة
غويانا الفرنسية (اميركة الجنوبية) . واقترح مارشال دوساكس
Marshall de Saxe الدونكيشوتي اقامة مملكة يهودية في
اميركة الجنوبية . واول محاولة جدية لاقامة مستعمرة يهودية
في شمالي اميركة انما جرت سنة ١٨٢٥ عندما اشترى رجل يُعرف
بالميجور نوح Noah جزيرة كبيرة في نهر نياغارا وأقام فيها مع
اليهود . ولكن أياً من هذه التجارب لم تحظ بالنجاح ، فهي تعمر
بضع سنوات ثم تُمتنى بالافلاس فتخفق .

وكان هاتزل قد اقترح في كراس نشره بعنوان « الدولة
اليهودية » أن تنشأ دولة في فلسطين لا تورث سكان تلك البلاد
ضرراً ما ، وان تكون الاماكن المقدسة كلها منطقة دولية بحيث
يتمكن الناس على اختلاف جنسياتهم من زيارتها . كذلك اقترح
ان تدفع تلك الدولة الجزية سنوياً الى السلطان العثماني . ولكنه
توفي قبل ان يحقق شيئاً من ذلك .

ومنذ الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ ، عندما
كتب مستر آرثر بلفور رسالته الشهيرة الى لورد روتشيلد ،
والتي تعرف اليوم بتصريح بلفور ، خطا الصهيونيون خطوات
واسعة ، فوق جثث المبادئ والضحايا البشرية العديدة ، من
اجل تحقيق ذلك الوعد الشفهي المزعوم الصادر عن رب اليهود ،
يهوه ، لزعيمهم موسى .

وكان عام ١٨٨١ عام « الخروج » الى الولايات المتحدة .

فبين عامي ١٨٨١ و ١٩٢٩ هاجر ٢،٨٨٥،٠٠٠ يهودي من
اوروبه الشرقية الى الولايات المتحدة . وفي ما بين عامي ١٩٣٢ و
١٩٥٠ 'سمح لاربعة ملايين يهودي آخرين بدخول الولايات
المتحدة . وهذه الارقام ذات دلالة خاصة . ذلك بأن التقدير
الاحصائي الذي أجري ، عام ١٨٨٠ ، اظهر ان مجموع اليهود في
العالم ، من غربيين وشرقيين ، يبلغ ٧،٦٦٣،٠٠٠ وان ٥،٧٢٦،٠٠٠
منهم كانوا يعيشون في روسيا ، وبولندة ، وغاليسيا ، ورومانيا .
وفي الوقت الحاضر يوجد نحو من سبعة ملايين يهودي في
الولايات المتحدة ، ومليون في اوروبه ، ومليون واربعمئة الف
في اسرائيل ، وحوالي مليون ونصف منتشرين في سائر ارجاء
العالم . واذا صح ان معتقلات هتلر قضت على ستة ملايين يهودي -
كما يزعمون - كان معنى ذلك ان عدد اليهود زاد بنسبة ٢٤٠٪
خلال خمسين عاماً .

وفي مطلع القرن العشرين لم يكن في فلسطين غير خمسة
آلاف يهودي ، وكانوا يملكون ٩٥٠٠٠ أكر * من الارض .
وكانوا ، شأنهم اليوم ، يعتمدون اعتماداً شبه كلي على الهبات التي
تردهم من يهود اميركة واوروبه .

وأياً ما كان ، فليس من ريب في ان رسالة آرثر بلفور ، رئيس
الوزراء البريطاني ، (٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧) كانت هي
'منطلق' السكارثة الحاضرة . ولكن حتى هذا التصريح منح

* الأكر فدان مساحته ٤٣٥٦٠ قدماً مربعاً (٤١٨٤٠ ياردة مربعة)
او نحو اربعة اعشار الهكتار . [العرب]

العرب أيضاً ، في نصه الاصيلي ، حماية كاملة حيث قال :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتحقيق هذه الغاية ، مع البيان الجلي بأنه لن يفعل شيء يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ، أو الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى . »

ولو ان اليهود الذين أفادوا من هذا النصّ التزامه التزاماً صحيحاً اذن لما وقعت الحرب الفلسطينية . ولكن السير هيربرت صموئيل ، وزير الداخلية اليهودي في حكومة بلفور والمفوض السامي في فلسطين بعد ذلك ، أعاد كتابة تصريح بلفور من جديد حاذفاً العبارة التي تصون حقوق «الطوائف غير اليهودية» وقاصراً الهجرة اليهودية على مجرد قدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين . وفي الحال غدت القدرة الاقتصادية على الاستيعاب رهناً بمحافظ الاموال اليهودية في اوروبة والولايات المتحدة ، وبذلك طمس على القسم الاخير من تصريح بلفور الذي يشير الى اليهود في البلدان الاخرى .

ولعل اول نتائج تصريح بلفور إنشاء «الفرقة اليهودية» التي قاتلت مع الاوستريين في منطقة القدس ضد الاتراك العثمانيين . وقد وطىء افرادها ارض فلسطين ، عام ١٩١٨ ، فشكّلوا الاساس الاول لعصابة شتروندشنوا عهداً من الارهاب حمل العرب - الذين دُعموا لهذا الغزو ولموقف الانتداب الذي يمثله سير هيربرت صموئيل - على ان يشرعوا في بيع أراضيهم بأيّ ثمن . وطوال سنتين او يزيد ، ومن خلال برامج مدروسة من الوعيد والضغط

استولى المهاجرون اليهود على الاراضي العربية بجزء من الثمن الذي تستحقه . ولم تقف هذه الحركة الانهزامية الا بعد ان نُظمت المقاومة العربية سنة ١٩٢٠ .

وكان بما ساعد على وقفها ايضاً تصريح لوندستون تشرشل ، سنة ١٩٢٢ ، جاء فيه : « .. ان احكام تصريح بلفور لا تفيد ان فلسطين كلها سوف تُحوّل الى وطن قومي يهودي ، ولكن تفيد ان مثل هذا الوطن سوف يُنشأ في فلسطين . »

ويجب ان نذكر انه كانت قد نشأت في هذه الفترة من الازمة والخرج دولة عربية في سورية - وعداً بأقامتها البريطانيون ايضاً - ولكنها ما لبثت ان هوجمت وقوّضت اركانها من جانب الفرنسيين الذين فازوا ، وفقاً لاحكام اتفاقية سايكس بيكو السرية ، بالانتداب على سورية ولبنان مقابل وضع فلسطين وشرقي الاردن والعراق تحت الانتداب البريطاني . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الخيانة ان عصّف بالعرب عاصفٌ من اضطراب . ولم يكن في سياسة سير صموئيل هيربرت ما يساعد على التخفيف من حدة التوتر . ومن هنا نشبت القلاقل .

ومن سنة ١٩٢١ ساءت الحال في فلسطين على نحوٍ مطرد حتى اندلعت نار الثورة سنة ١٩٣٦ . واذا جاز لنا ان نقول ان العرب ليسوا غير ملومين بالسلبية فليس من شك في ان السياسات المحيّرة التي اتبعتها الحكومة البريطانية ومفوضوها السامون - وبعضها يناقض بعضها الآخر - ينبغي ان تُعتبر هي المسؤولة عن ذلك في المحل الاول . لقد غدت فلسطين لعبةً يعبث بها البريطانيون

واليهود واصدقاؤهم . وتعاقبت النظريات والاتجاهات ، وليس في ايٍّ منها ما يأخذ مصالح العرب بعين الاعتبار .

وفي هذه الفترة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية شنت « عصابة شتون » و « إرغون تسفاي ليومي » - وكلتاهما منظمة عسكرية غير شرعية - الحرب على العرب والبريطانيين جميعاً ، في ضراوة كانت نذيراً واضحاً بالأحداث التي سوف تقع .

وتعاظمت المقاومة العربية للتوسع الصهيوني تعاضماً مطرداً . فبعد ان اتضح للزعماء المسلمين الفلسطينيين ان بريطانية لن تقوى على صيانة مصالح العرب التي كفلها تصريح بلفور شرعوا ينظمون قواهم ويواجهون العصابات الصهيونية الغازية بنيورات البنادق والكمون لها ههنا وههناك . واخيراً وفد على فلسطين ، سنة ١٩٣٦ ، خير في شؤون الحرب المكشوفة اسمه فوزي القاوقجي - وهو لبناني درس الفنون العسكرية في ألمانية - وقاد قوةً عربيةً كانت تناضل ضد الجيوش الصهيونية . وكان من نكد طالع فوزي - ولعلّ مردّ ذلك الى فعاليتيه الفائقة - أنه انساق الى الاشتباك بالبريطانيين . وعلى الرغم من حرب العصابات التي شنوها ثلاث سنوات ، مُني الفلسطينيون العرب آخر الامر بالهزيمة . ثم إن فوزي برز بعد ذلك على مسرح الثورة القصيرة التي أعلنها رشيد عالي الكيلاني على البريطانيين سنة ١٩٤١ . وجائز ان يكون رشيد عالي قد تلقى من المحور بعض المساعدات المالية . وقد ارتضى على أية حال عوناً محدوداً من سلاح الطيران الألماني (لوفتواف) الذي كان يحتل آنذاك

المطارات السورية . ولكن ذلك العون لم يكن كافياً، فما هي الا فترة يسيرة حتى أخذت الثورة العراقية على يد الجيش العربي الاردني وبعض القوات البريطانية المجهزة بالدبابات . ثم ان هذه القوة العربية البريطانية اصطنعت في ما بعد لشلّ جيشٍ سوري صغير كان يخضع لسلطان فيشي .

ووضعت الحرب العالمية الثانية حداً مؤقتاً لأعمال العنف في فلسطين . وكان شعار الصهاينة جلياً : إنهم « سوف يخوضون الحرب و كأنّ كانّ ليس ثمة كتابٌ ابيض ، ويحاربون الكتاب الابيض و كأنّ ليس ثمة حرب . » ولم يكن « الكتاب الابيض » هذا غير محاولة بريطانية لجلاء ما انتهى الى ان يصبح ، الآن ، وضعاً مشوشاً الى حدّ يوقع اليأس في النفوس . ذلك بأن لندن كانت قد نفخت على الهجرة اليهودية ريحاً ساخنة حيناً ، باردة حيناً آخر ، الى ان صار في فلسطين عدد من اليهود يتعذر معه العيش في سلام مع العرب إلا من طريق طرد اليهود الذين دخلوا البلاد على نحو غير شرعي ، واستولوا بطريقة شرعية او غير شرعية على الاراضي العربية .

وهكذا نشرت الحكومة البريطانية ، في نوار سنة ١٩٣٩ ، كتاباً ابيض لم يزد المشكلة إلا تعقيداً . وإنما قصد بهذه الوثيقة ، في الأساس ، الى إعادة الثقة الى نفوس العرب . فنصّت على أنه سوف تُنشأ بعد عشر سنوات ، دولة فلسطينية دستورية مستقلة تطمئن معها قلوب العرب الى ان الهجرة اليهودية الموصولة ستعدّل على نحوٍ لا يجعل من العرب ، في المستقبل ، أقلية في البلاد .

ووفقاً لذلك :

« أ » فلن يسمح خلال السنوات الخمس التالية لأكثر من خمسة وسبعين ألف يهودي بالدخول الى فلسطين ، وبعدها لن تكون هجرة يهودية الى البلاد إلا برضا العرب .

« ب » ويحرم شراء اليهود للأراضي في بعض المناطق ، ويحدد في بعضها الآخر .

وأقرّ الكتاب الأبيض بأن إطلاق العنان للهجرة اليهودية غير المحدودة خليف به أن يؤدي الى طغيان اليهود على العرب ، وهو وضع يتناقض مع تصريح بلفور ، وعهود بريطانيا الخاصة للعرب ، ومع المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم .

وفي بريطانيا والولايات المتحدة أدى نشر الكتاب الأبيض الى حملة خطابية تهديدية شنتها الصهيونيون البارزون ، على حين شجع « عصاة شتون » و « إرغون تسفاي ليومي » - في فلسطين - على استئناف العدوان . وكان اندلاع نار الحرب العالمية في أيلول قد حمل الى الديار المقدسة - كما قلنا آنفاً - سلاماً محموماً ، ولكنه نسبي ، بعد أن تهددت قوات المحور التي احتلت لبنان وسورية يهود فلسطين بخطرٍ جسيمٍ دونه الخطر العربي أو الخطر البريطاني . ولكن انتهاء الحرب ضد المانية ، سنة ١٩٤٥ ، جدّد الضغط

اليهودي في فلسطين ، وفي لندن ، وفي واشنطن . واستغلّ انجراف الرئيس هاري ترومان مع التيار الصهيوني استغلالاً بالغاً الى حد جعل مسألة انشاء دولة يهودية في فلسطين 'تقدّم على كثير من المشكلات الاميركية والدولية الكبرى التي تهم الولايات المتحدة اكثر مما تهمها المشكلة الصهيونية بما لا

يقاس . وأخيراً ، وبعد إلحاف شديد من واشنطن ألفت لجنة انكليزية اميركية للتحقيق في المشكلة الفلسطينية . وكانت اعمال العنف قد استؤنفت ، حتى قبل أن تستسلم ألمانيا ، وكان الارهابيون اليهود قد صرعوا لورد موين في القاهرة ، عام ١٩٤٤ ، وقاموا بأعمال عديدة من التقتيل والتحريق في حيفا ويافا والقدس . وفي عام ١٩٤٥ أطلق اليهود موجةً من الارهاب - من طريق الاغتيالات والقاء القنابل وغيرها - جعلت من الواضح ، حتى في واشنطن نفسها ، أن للقضية وجهةً عربية . وكأنما اراد اليهود ان يؤكّدوا على هذه الحقيقة التي تتناساها الحكومة الاميركية ففسفوا مقرّ الشرطة العام في القدس 'مهلكين بذلك عدداً من البريطانيين والعرب ، وعدداً من اليهود في وقت معاً .

وفي كانون الاول ١٩٤٥ وصلت الى فلسطين لجنة اثنا عشرية بريطانية اميركية لدرس القضية ، وانصرفت الى جمع الحقائق التي تمكنها من ابداء رأيها . وقد نشرت هذه اللجنة تقريرها في نيسان ١٩٤٦ .

وفي الوقت نفسه كان نشاط المنظمات الصهيونية المتكاثف ، في الولايات المتحدة ، قد أدى الى خلق منظمات غير شرعية في اوروبة مهمتها اختيار الشبان اليهود ذوي الاجساد السليمة وترحيلهم الى فلسطين ابتغاء تعزيز الجيوش اليهودية التي كانت قد أنشئت قبل ذلك هناك . وانما كشف عن هذا البرنامج - الذي نهض جماعة من المواطنين الاميركيين بكامل نفقاته والذي نفذه نفرٌ من الضباط في الجيش الاميركي - الجنرال مورغان ، مدير

هيئة الأغاثة التابعة للأمم المتحدة في المانية . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا الكشف إبعاد الجنرال مورغان من منصبه . أما عملية الترحيل فظلت قائمة على قدم وساق ، من غير ان تمس .
وايأ ما كان ، فقد اشتمل تقرير اللجنة البريطانية الاميركية على ما يلي :

« أ » ان ثمة ، في الوقت الحاضر ، حظوظاً قليلة في ايواء عدد من المهاجرين اليهود ، بالغاً ما بلغ ، في غير فلسطين . ولكن فلسطين وحدها لا تستطيع ان تنهض بالعبء كله . من اجل ذلك يتعين على الحكومتين (بريطانية والولايات المتحدة) ان تسعيا ، بمعاونة البلدان الاخرى ، لأيجاد مواطن جديدة للمهاجرين اليهود حيثما دعت الحاجة ، وان تبذلا جهدهما لضمان الحريات لاولئك اليهود الذين يؤثرون البقاء في اوروبة .

« ب » يجب ان يرخص ، في الحال ، لمئة الف من اليهود ضحايا الاضطهاد النازي والفاشستي بالدخول الى فلسطين . وينبغي ان يتم ترحيل هؤلاء باسرع ما تسمح الاحوال في ذلك .

« ج » . يجب ان يصدر نص صريح في ما يتصل بمستقبل فلسطين السياسي ، مؤداه ان اليهود لن يطغوا على العرب ، وان العرب لن يطغوا على اليهود في فلسطين . وان فلسطين لن تكون لا دولة يهودية ولا دولة عربية . وان فلسطين يجب ان تصبح آخر الأمر دولة تحكم نفسها بنفسها وتكفل حقوق المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

« د » . ان انشاء دولة او دول مستقلة الآن جدير به ان يؤدي الى فتنة داخلية قد تهدد سلام العالم . واذن ، فألى ان يزول الحلاف العربي اليهودي ، يتعين على حكومة فلسطين ان تحافظ على شكلها الانتدابي ريثما تخضع لوصاية هيئة الامم المتحدة .

« هـ » . يجب على حكومة الانتداب او الوصاية ان تعلن هذا المبدأ : وهو ان تقدم العرب الاقتصادي والثقافي والسياسي ، في فلسطين ، يهما بقدر ما يهما تقدم اليهود في هذه الميادين . وان تتخذ في الحال الاجراءات الكفيلة

يرفع مستوى المعيشة العربية الى المستوى اليهودي . (يجب ان يذكر هنا ان الحاخام ريفوسكي Revuski اتهم اليهود بأنهم يعاملون اجراءهم من العرب معاملة العبيد الأرقاء .)

«د» يجب ان تبطل قوانين ١٩٤٠ الخاصة بانتقال الاراضي بحيث تطلق الحرية لليهود في اكتساب الاراضي العربية . اما الاماكن المقدسة « فينبغي ان تصان من التدنيس » .

«و» . إن برامج التطور الاقتصادي الضخمة لا يمكن ان تنجح في فلسطين من غير رضا ابنائها من العرب وتعاون الدول العربية المجاورة . وهذه البرامج ينبغي ان تدرس وتنفذ لا بالتشاور الكامل مع الوكالة اليهودية (في فلسطين) وحسب ، ولكن مع حكومات الدول العربية المجاورة ايضاً .

«ز» . يجب ان يوضح بأجلى بيان لـكل من اليهود والعرب ان اى محاولة من جانب اى من الفريقين للحؤول دون تنفيذ هذا التقرير ، سواء بالتهديد باستعمال العنف او بالارهاب او بتنظيم او اصطناع الجيوش غير الشرعية ، سوف تقمع في حزم . ويتعين على الوكالة اليهودية ان تستأنف في الحال التعاون الفعال مع حكومة الانتداب لوقف الارهاب والهجرة غير الشرعية ، ولأقرار النظام والقانون في طول فلسطين وعرضها .

ولم يستقبل اى من العرب او اليهود هذا التقرير استقبالاً حسناً . فقد شجب العرب الهجرة والتوصيات الخاصة ببيع الاراضي بوصفها نقضاً لحق تقرير المصير (كان العرب لا يزالون يشكلون الغالبية الكبرى من السكان آنذاك) ، وللعهود والعهود البريطانية كلها ، ولميثاق الأطلسي ولغيره من البيانات التي كان الحلفاء قد اذاعوها عن اهدافهم من الحرب . وأضربت الاسواق والمدن العربية ، وعُززت المقاطعة العربية للبضائع والخدمات اليهودية تعزيزاً كبيراً .

أما اليهود فلم يرضهم من التقرير غير ما نص عليه من وجوب

ادخال مائة الف مهاجر جديد الى فلسطين . أما سائرهُ فشجبهوه
ورفضوه . لقد دافعوا عن جيوشهم غير الشرعية ورفضوا التعاون
مع السلطة المنتدبة لكبت الارهاب . ثم شنوا حملة عنيفة من
الارهاب ضد البريطانيين في المحل الأول . حتى اذا ارسل الرئيس
ترومان ، في غير ما ضجة ، جماعة من الموظفين يمثلون لجنة الوزارية
لشؤون فلسطين ليناقدشوا رئيس الوزراء ، أتلي ، في الأمر رفعت
« عصابة شتون » حرارة حملتها وزادتها ضراوة . ففي ١٦ حزيران
نسفت ثمانية من جسور سكة حديد فلسطين المركزية واحدى
ورش العمل ، وإنما اصبحت الورشة بذلك بسبب من انفجار وقع
قبل أوانه وذهب ضحيته ثمانية عشر ارهائياً وضابط بريطاني واحد .
وُصِدَّت السفن الموسوقة بالمهاجرين غير الشرعيين عن سبيلها
واحتُجِزت في قبرس ، في حين اختُطِف عددٌ من الضباط
البريطانيين لما يُكشف النقاب عنه ، واُتخذوا رهائن وُجلدوا
بالبساط . ليس هذا فحسب ، بل إن عدداً من الجنود البريطانيين
الذين قبلوا دعوات اليهود الى زيارتهم وُجدوا في ما بعد موتى
بالسم ، او بطعنات السكاكين . وفي ثلاثة اشهر صرع ستة عشر
ضابطاً بريطانياً ، في جملتهم اولئك الذين سُمِّموا في تل ابيب .
وفي ٢٢ تموز سنة ١٩٤٦ نُسِفَ فندق الملك داود ، مقر القيادة
العامة البريطانية ، بقنابل الارهابيين اليهود فقتل مئة وستة
اشخاص ، وجرح ستة واربعون .

وفي سنة ١٩٤٧ تعاظمت موجة الارهاب اليهودي اكثر
فأكثر . فخطفت العصابات اليهودية الجنود البريطانيين وجلدتهم

او قتلتهم . وأوقع اليهود بثلاثة من اولئك الجند ثم شدوهم الى الاشجار وراحوا يطعنونهم بالحرا ب ، ثم وضعوا القنابل اليدوية داخل قمصانهم . وحوالى هذه الفترة بالذات 'نشر اعلان «بن هشت» في الصحف الاميركية معلناً انه كلما قتل جندي بريطاني او ذبح رجل عربي « اقام يهود اميركة عيداً صغيراً في قلوبهم . »

وخلال عام ١٩٤٧ ضاعف اليهود نشاطهم في ميدان السلب والنهب . فسرقوا الاسلحة والذخائر من مستودعات الجيش ، بل سرقوا حتى دبابات شيرمان التي 'قدمت الى البريطانيين اثناء الحرب العالمية الثانية بموجب قانون الاعارة والتأجير . وقد لعبت اثنتان من هذه الدبابات دوراً بارزاً في الحملة الارهابية التي شنتها اليهود على المزارعين العرب وعائلاتهم .

وأخفق عرضان أخيران قدمتهما الحكومة البريطانية لحل قضية فلسطين (وقد عرف احدهما بمشروع موريسون) . وفي ١٨ شباط ١٩٤٧ أعلن البريطانيون عجزهم عن الوصول الى حل يرضي الفريقين جميعاً ، وأحالوا المشكلة الفلسطينية الى الامم المتحدة . فعينت جلسة خاصة لدراستها في شهر نيسان .

وكان الارهابيون قد واصلوا ، في الوقت نفسه ، اعمال العنف . فأخرجت القطار الحديدية عن خطوطها ، وقُتل مئات وجرح مثلهم . وفي ١٧ آذار نسف اليهود نادي غولدسميث الخاص بالضباط فقتل عشرون ضابطاً بريطانياً وجرح ستة وعشرون . وأخيراً فرض الانكليز الاحكام العرفية وقبضوا على مئة وثمانية وعشرين ارهابياً ، وحكموا على ثمانية وعشرين منهم بالموت ، ولكن اربعة من هؤلاء نُفذ

فيهم الحكم ليس غير . أما الباقيون فاستبدل بحكم الموت الصادر
ضدهم السجن مدى الحياة ، ثم أطلق سراحهم في الحال بعد ١٥
نوار سنة ١٩٤٨ عندما أصبحت اسرائيل ، رسمياً ، دولة مستقلة .
وبعد أيام قليلة انقضت على إحالة الحكومة البريطانية المشكلة
الفلسطينية برمتها الى الامم المتحدة ، برّر ايرنست بيفن وزير
الخارجية البريطاني هذا التصرف أمام مجلس العموم فقال :

« لو كان الأمر قاصراً على مسألة المئة ألف مهاجر لكان
في ميسورنا ، في ما أعتقد ، ان نوجد لهم مأوى . اجل ، كان في
الميسور إيجاد هذا المأوى لو كان عليّ ان احلّ المشكلة الانسانية
الحالصة ليس غير . ولكن ليس هذا هو الوضع مع الأسف . فمن
وجهة النظر الصهيونية ليس المئة ألف غير بداءة ، والوكالة اليهودية
تتحدث بلغة الملايين ، وأحسب ان من المستطاع إقناع العرب
بقبول مئة ألف مهاجر جديد ، بطريقة منظمة ، وعلى أسس
إنسانية* ، نظراً الى الحالة الاوروبية ، لو ترك امر الهجرة في ما
بعد - وأنا أؤكد على هذا - الى ممثلي الشعب الفلسطيني المنتخبين .
» وعندي ان مطلب العرب هذا مشروع ، ومفهم . فههنا
في بريطانيا العظمى ، نقرر نحن بوصفنا مجلساً للعموم ما اذا كان
للناس ان يدخلوا الى بلادنا أم لا . وليس أحد غيرنا يتمتع بهذه
الصلاحيّة . فكيف يُسمح لوكالة خارجية ، تمولها في المحل الأول
هيئات اميركية ، ان تقرّر عدد الاشخاص الذين ينبغي ان
يدخلوا الى فلسطين ، وان يتدخلوا في حياة العرب الاقتصادية
* صرح لي كثير من زعماء العرب بأن مثل هذا الطلب كان خليقاً بأن يقبل .

وهم الذي قطنوا تلك الديار منذ ألفي سنة ؟ »
وبعثت هيئة الأمم المتحدة لجنة لتقسيم فلسطين بين العرب
واليهود . وكان التشويش والاختلاط اللذان نشأ عن ذلك من
الطراز الأول . فقد قسّمت فلسطين الى مناطق لا رابط بينها ولا
اتصال ، بعضها للعرب وبعضها لليهود . والواقع ان الثمرة الاخيرة
لهذا التقسيم أشبهت كما قال جيمس باركز ، البريطاني اليهودي
الهوى ، بيوت الشطرنج المتعاقبة . ولعل ذلك الحل أن يكون
أسخف الحلول التي يمكن اقتراحها واكثرها استعصاء على التطبيق .
وفي استطاعة المرء ان يتصور وقعه في نفوس الأذكياء من العرب
واليهود على السواء . وليس من ريب في أن كلا من الفريقين قد
انتهى الى الشعور بأن المستقبل رهن بما يستطيعونهم تحقيقه لأنفسهم .
ولم يكن في ذلك شيء جديد ، بالنسبة الى الارهابيين اليهود .
ذلك بأنهم كانوا خارجين على العدالة منذ ١٩٤٤ وكان عندهم سلاح ،
بل لقد كان عندهم مصفحات ، وخبرة كبيرة في صناعة القتل .
وفي اوائل عام ١٩٤٨ وضعوا خطة العمل . وعينت الأمم المتحدة ،
بالاتفاق مع بريطانيا العظمى ، يوم الخامس عشر من نوار موعداً
لانتهاء الانتداب البريطاني واقامة دولة اسرائيل المستقلة على
اساس من التقسيم الجغرافي العجيب الذي اقترحته لجنة الأمم
المتحدة .

وكانت لـ «عصابة شتون» والـ «أرغون تسفاي ليومي» آراؤهما
الخاصة في تعديل الحدود المقترحة . فاعتزمتا ترويع العرب ، من
طريق شن حملات منظمة على القرى الزراعية العربية ، وإكراههم

على التخلي عنها لليهود . والواقع ان هذه الحطة ، التي عُرفت في
الايوساط غير الرسمية باسم «عملية الذعر» ، درست احسن الدرس ،
وُنقذت بأشد الحماسة ، واقتوت بأعظم النجاح . فلم يذتصف شهر
نوار حتى كان نصف مليون عربي ممن نجوا من المذابح المتعاقبة
يفرون بأنفسهم ، مروّعين مذعورين ، الى صحارى شرقيّ الاردن
وسورية والعربية السعودية ، لانه كان على اليهود أن يذبحوا
سكان بضع قرى ليس غير ثم تتولى محطة اذاعتهم الباقي . وتفصيل
ذلك ان الراديو اليهودي كان يتباهى بتدمير القرى العربية وذبح
سكانها ذبحاً اجماعياً ثم يحذر العرب قائلاً : « إن عليهم ان يدركوا
حين يرون دبابات اسرائيل وجندها في الطريق اليهم ان المصير
نفسه ينتظر قريتهم . »

وينبغي ان نكرر ان هذه المجازر لم تكن عفوية ولكن
مبينة مدروسة . ففي الصحيفة الناطقة بلسان عصابة شتون -
جريدة هاماشكيف Hamashkif - نص المسؤولون في المنظمة
على ان خططهم عرضت على القيادة العسكرية اليهودية واقتوت
بموافقتها . وفي سنة ١٩٥٠ نهض إرغونيّ سابق في الكنيست
(البرلمان الاسرائيلي) واتهم دافيد بن غوريون بأنه هو نفسه الذي
اقترح «عملية الذعر» هذه . واياً ما كان فإن سلسلة موصولة من
المذابح تسفك فيها دماء القرويين العرب العزل من السلاح طوال
أسبوع كامل لا يمكن ان تتم من غير موافقة ضمنية رسمية من
المسؤولين في تل ابيب .

وكانت دير ياسين أول نصر أحرزته الارغون . ففي الصباح

الباكر من ٩ نيسان سنة ١٩٤٨ ، حين كان المزارعون العرب
وافراد أسرهم ينصبون خيامهم في سوق القرية ، اقتحمت دبابتان
من طراز شيرمان طرق دير ياسين الضيقة وسحقتا فلاحين متعبين
كانا نائمين قرب عتبتَي بيتيهما . وكان يصحب الدابتين قوة من
اليهود يبلغ عددها خمسة رجل مزودين بمدافع التومي والاسلحة
الاوتوماتيكية الفتاكة .

ولقد صرّحت القلة القليلة التي بقيت على قيد الحياة من أبناء
دير ياسين - ومعظمها من النساء اللواتي سُلبن كل ما عندهن
وُمزقت اثوابهن تزيقاً ، واللواتي استعرضهن اليهود في شوارع
تل ابيب في سيارات كبيرة قبل ان يسلموهن بالرغم منهم الى
الصليب الاحمر الدولي - أقول صرحت هذه القلة القليلة التي لم
تأتِ عليها فظائع اليهود في دير ياسين ان الدابتين اقتحمتا سوق
القرية واطلقتا نيران المدافع الاوتوماتيكية على الأهلين المحتشدين
في السّاحة .

وبعد ان اطلقت الدبابتان نيرانها تعقب الجنود الاسرائيليون
أهل القرية الفارين بأنفسهم ، وقتلوه في غير ما استبقاء بينا
كانوا يهربون او يختبئون في الطرق او في منازلهم . وفي دير
ياسين تكررت مشاهد أريحا التي وصفها الكتاب المقدس بقوله :
« وقتلوا كل ما في المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ،
حتى البقر والغنم والحمر ، بحدّ السيف . » * وما من احد يدري
عدد ضحايا المذبحة ، على وجه الضبط ، ولكن الامر الثابت ان

* يشوع ، الاصحاح السادس ، آية ٢١

الذين نجوا من الموت ، من ابناء دير ياسين ، يقولون عن
الثلاثين شخصاً .

وكانت بعض الفظائع التي تلت تتطلب شيئاً من الخيال . فقد
جمع الغزاة خمساً وعشرين امرأة حاملاً ، ووضعوهن في صف
طويل ثم اطلقوا عليهن النار . ثم انهم بقروا بطونهن بالمس
او بالحرايب واخرجوا الأجنة منها نصف إخراج . وقطّـع
الأطفال إرباً إرباً أمام أعين آبائهم الذين ما زالوا على
قيد الحياة . وخصي الصبية الصغار قبل ان يُقتلوا . وانتزعت
الخلي واخواتهم من اجساد القتلى . وبُترت اصابع الضحايا الذين
وجد المعتدون عسراً في انتزاع خواتمهم .

وطلب جاك دو رينييه ، مندوب الصليب الاحمر الدولي ،
الأذن من الوكالة اليهودية في الدخول الى دير ياسين . ولكن
الوكالة لم تسمح له في ذلك الا بعد انقضاء ثمان وعشرين ساعة لكي
تتيح للارغونيين فرصة يستطيعون خلالها اخفاء معالم الجريمة .
وهكذا ألقى نحو من مئتي جثة من جثث القتلى في بئر عتيقة ،
وغطيت بالقذر والاروساخ . ولكن الرائحة النتنة فضحتهم ،
وقد كان المندوب البلجيكي من أن يحصي الجثث بعد
اخراجها من البئر ، بيد ان كثيراً من الاجساد لم تكن كاملة .
وتحدث دو رينييه في شيء من الاشمئزاز ، عن الاشياء التي شاهدها
وروى كيف انه وجد فتاة عربية في السادسة من عمرها لا تزال حية
تحت ركام من الجثث ، وكيف انه حملها الى المستشفى وعلق
على هذا بقوله : « كان ذلك ، بكل بساطة ، شيئاً فظيئاً . »

لقد حاول بعض الصهيونيين الاميركيين ان ينكروا ، في
حقق وثورة ، ان تكون مذبحجة دير ياسين قد وقعت في
يوم من الايام ... زاعمين انها مجرد «دعاية عربية شريرة» .
وليس في استطاعة أبناء دير ياسين أن يجيبوا عن ذلك ، فهم
صامتون . ولكنّ ثمة الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان عصابة شتون ،
والمسماة « ميفراك » Mivrak . ففي ٧ ايلول سنة ١٩٤٨ كتب
دانيال دولوس الى صحيفة « واشنطن ستار » يقول :

« لا تزال نجعل الى اي مدى يمكن لأفراد الأرغون وشتون
أن ينسقوا جهودهم في ما يتصل بشرقى الاردن . والواقع أن
جهدهم المشترك الاكثر شهرةً يتمثل في ذلك الهجوم الليلي الذي
شنوه على قرية دير ياسين قرب القدس ، في الربيع الماضي . وقد
صرّح ناطقون باسم شتون في مؤتمر صحفي بأن ما يزيد على مئتين
وخمسين قروباً عربياً ذُبحوا هناك ، اكثر من نصفهم نساء واطفال .
» وتشير شتون (عصابة شتون) في اعتزاز وفخر الى دير ياسين
ابتغاء الحصول على اكبر عدد ممكن من الاصوات في المعركة
الانتخابية . فقد نشرت جريدة « ميفراك » الناطقة بلسان شتون
افتتاحية جاء فيها قولها : « إن كل امرئ يعرف ان الهجوم على
دير ياسين هو الذي اوقع الرعب في قلوب الجماهير العربية وأدى
الى فرارها المذعور - هو المعجزة المباركة التي قوّت عزائمنا
وانزلت بالعدو ضربةً اعظم بكثير مما كان يمكن لحكمة جميع
قواد الهاغانا مجتمعةً ان تصنعه ... ونحن نرجو ان لا تُسْفَح
دموح التماسيح ، بعد اليوم ، على فظائع دير ياسين . »

ولم تكن دير ياسين غير بداءة واستهلال . ففي اليوم الرابع عشر من نيسان تكور المشهد في قرية نصر الدين . وفي الخامس من نوار هاجم الهاغانا (جيش اسرائيل الرسمي) عدد آمن القرى القائمة على ضفاف الاردن قرب القرية المعروفة باسم بيت اخوري . وفي هذا الهجوم قتل مئات من العرب (ونحن نجهل الرقم الدقيق لصرعى الهجوم لان عدداً كبيراً من الضحايا ألقي به في المستنقعات وفي مياه النهر) وجرح ما يزيد على الف ومئتين . ومثل الضحايا - رجالاً ونساء واطفالاً - قبل الموت وبعده . وقطعت رؤوس عدد من الرجال بسبب من انهم أبدوا بعض المقاومة ، على ما يظهر . ولا تزال قلة قليلة تمثل الناجين من تلك المذبحة تحمل آثارها المشؤومة : أيادي مقطوعة ، أو أرجلاً مبتورة . أما الناجون بانفسهم والذين كان لا يزال في مقدورهم ان يسيروا على اقدامهم او يصطنعوا اوصالهم في السباحة فقد هاجروا الى سورية .

وفي ٦ و ٧ و ١٣ نوار شن اليهود هجمات جديدة على قرى عربية اخرى . ففي الزيتون ، وهي قرية يكثر فيها هذا النوع من الشجر ، جمع أهل القرية كلهم في المسجد ، ثم نسف المسجد بالديناميت على رؤوس من فيه . وفي بيت درّاس طبق اليهود الحطة نفسها التي طبقوها في دير ياسين والتي تقضي باختيار عدد من النساء الحوامل وبقر بطونهن بالمدى والحراب .

ولا ترحم الفظائع اليهودية المماثلة طويلة جداً ، ولكنها كانت كلها تنهج هذا النهج ، وتطبع على هذا الغرار . وهي تفسّر لنا

كيف استطاعت قوى من الارهابيين والهاغانا صغيرة نسبياً
ان 'تخرج' نحواً من ٩٠٠,٠٠٠ عربي من الارض التي حرثوها
وعمروها لأنفسهم منذ آلاف السنين . لقد نجحت «عملية الذعر» ،
نجاحاً عظيماً جداً ، من وجهة النظر الصهيونية ، ولعل واضعها
ان يكون فخوراً بها !

ولكن الشيء المهم حقاً هو ان اسرائيل أصبحت دولة مستقلة
في ١٥ نوار ، وان الرئيس ترومان كسب السباق الى الاعتراف
بها ، وكسبه بمراحل واسعة !

٣ . عندما دعا اليهود ابطال الفالوجة الى الغداء !

كانت انتخابات الرئاسة لعام ١٩٤٨ على الابواب عندما أبحرتُ من بالتيemor على متن شاحنة نرويجية تدعى «هوغ سيلفر ستار» كانت قاصدة الى البصرة . ولقد اخترت هذه السفينة لان برنامج رحلتها كان يقتضيها أن تبقى اسبوعين في مصر ، وكنت اريد ان تتاح لي فرصة النظر الى الحرب الفلسطينية من تلك الزاوية . ثم انني قررت ، في ما بعد ، ان ارجع الى مصر ، من طريق العراق وشرقي الاردن .

ذلك بأن شئنين اثنين صداني عن سبيلي . الاول ان دائرة الجوازات كانت قد قاطعت مصر ، فاذا على جوازي خاتم ضخمة جليل ينص على ان الجواز « غير صالح للسفر الى مصر والنزول فيها . » والثاني ان هدنة قلقة كانت قد اوقفت اطلاق النار في الحرب الفلسطينية ، ومن هنا كان من الجائز ان تنشأ مصاعب تحول دون ذهابي الى غزة والخطوط الامامية ، حتى ولو سمح لي المصريون في النزول الى بلادهم برغم معارضة وزارة الخارجية الأميركية . صحيح أن قائداً مصرياً كانت تطوقه آنذاك مع ألفين من القوات المصرية الفقيرة الى السلاح قوة اسرائيلية تتفوق

على رجاله في العدَدَ تفوقاً كبيراً بعد أن افاد اليهود من الهدنتين الاولى والثانية للحصول على السلاح من تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا - ولكن كان لا بدّ من ان ينقضي اسبوعان على الاقل قبل أن تصل الـ « هوغ سيلفرستار » الى الاسكندرية .

وكان الذي دفع دائرة الجوازات الى ان تقف هذا الموقف من الراغبين في السفر الى مصر مقتل اميركي يهودي في القاهرة . ومن هنا ذهبت وزارة الخارجية الاميركية الى الاعتقاد بأن حياة الاميركيين في مصر عرضة للخطر ، فهي لا ترغب في ان تجعل مني حادثةً دولية ...

وعلى أية حال فقد كنت في سبيلي الى البلاد العربية مزوّداً بفألٍ حسنٍ في حظٍ سعيد . وتفصيل الأمر اني كنت تراهنت في أول تشرين الأول مع صديق هولندي على أن ترومان سوف يكسب المعركة ، وكان صديقي ذاك قد ارتضى ان يكون الرهان عشرة أمثال يدفعها هو مقابلٍ مثلٍ واحد أدفعه أنا . ولم يكن الذي دفعني الى ترجيح ترومان اعتقادي بأن هذا الأخير يستطيع ان يهزم مرشحاً صالحاً من الحزب الجمهوري ، ولكنني كنت أوّمن بأن كثيراً من الجمهوريين سوف يحجمون عن التصويت لـ « ديوي » . وهكذا يكون في ميسور ترومان ان يفوز بسببٍ من هذا الاستنكاف عن التصويت . والواقع ان الانباء التي حملها اليّ راديو السفينة بشرتني بقدر اضافي من المال استعين به على رحلتي . ولم أكن لأعرف آنذاك ان ترومان سوف يخوب على هذا النحو الصداقة العربية وينزل بالولايات المتحدة اذى يكاد يستعصي على

التعويض والاصلاح ، والا لكنت خليفاً بأن اغدو اقل سرورا
بذلك الكسب. وأياً ما كان ، فلعل ديوي ما كان ليقف من القضية
الفلسطينية ، في حال نجاحه ، موقفاً أفضل ، وذلك للأسباب عينها.
ولم تكن الـ «هوغ سيلفر ستار» باخرة ضخمة - فزنتها اقل
من ٧٠٥٠٠ طن بعض الشيء - ولكن الغرف المفردة للركاب
كانت تتسع لأربعة عشر مسافراً . وكان أول اتصالي بهم عقب
إبحار السفينة من بالتي مور ، وكان معظمهم اخصائيين في البترول
فهم قاصدون الى البحرين للعمل في خدمة شركة كالتكس البريطانية
هناك ، وكانت مع كثيرهم زوجاتهم واطفالهم . وكانت ثمة امرأة
في ريعان الشباب عملت فترة في السلك القنصلي بالكونغو-
البلجيكي ، ثم غادرته لتتقصد الى بلدي لا يقلّ عن الكونغو حرارةً
ولكنه أقلّ رطوبةً بكثير - الى الظهران في المملكة العربية
السعودية ابتغاء العمل ضاربةً على الآلة الكاتبة في مكتب مكثّف
الهواء وبراتب اكثر سخاءً . وكان بين المسافرين ايضاً طالبٌ
نرويجي شاب يقوم برحلة علمية ، بعد تخرجه من الجامعة ، رغبةً
في أن تتم له صورة عن العالم .

وكانت السماء تجود بالمطر حين بلغنا الاسكندرية . وكان ثمة شبه
تعتيم لا تعتيم كامل . لأنه فيما كانت المنائر القائمة عند مدخل الميناء سوداء
كانت انوار المدينة تبدو غير مبالية بالقاذفات الاسرائيلية التي سبق لها
ان دمرت عدداً من الابنية في ذلك الثغر ، وقتلت عدداً من الناس .
واذ لم تجرؤ الـ «سيلفر ستار» على دخول الميناء اثناء الليل ، وفي
غمرة من البحر الهائج ، فقد بقيت خارج المرفأ الى الضحى .

وبالنظر الى الخاتم الذي يحمله جوازي والذي ينصّ على انه
غير صالح لهبوط مصر فقد كنتُ شبه متأكد انه لن يتاح لي النزول
الى الشاطئ ، لأبسط قضيتي لشرطة الميناء . ولكن ما إنْ شدّت
الـ « سيلفر ستار » الى رصيف المرفأ الداخلي مقابل رأس التين
تقريباً - موقع فنار الاسكندرية القديم الذي كان احدى عجائب
الدنيا في العصور السالفة - حتى صعد رجال الشرطة الى متن السفينة
ومعهم المراقبون العسكريون وموظفو الجمر ك ، والتمستُ منهم
السماح لي بالنزول الى البر المصري بعد ان بدأوا مناقشتهم الاولى
مع ربان الباخرة .

و كنتُ خليقاً بأن اكون اكثر تشاؤماً لو عرفتُ من قبل
شيئاً عن المتاعب التي كانت مصر تلقاها من بواخر الدول
الغريبة . لقد سمعتُ بذلك الآن في تفصيل محزون . حتى
اذا تقدمت القصة - وتأكدتُ لديّ فيما بعد من طريق عدد من
الاميركيين البارزين الحسني الاطلاع - ادركتُ ان المصريين
على حق في تخوفهم . ومع ذلك فقد منحني البوليس سمة مرور
فهبطت الى البر .

وكانت مصر قد غدت منذ عام ١٩٣٦ دولةً حرةً مستقلة .
ولكن بريطانيا ما تزال تحتل جزءاً من أراضيها هو منطقة
القنال . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت للانكليز سلطة كبيرة
على القوات المصرية المسلحة ، برية وبحرية وجوية ، بسبب من اعتماد
مصر على المصانع البريطانية في ميدان التسليح . والواقع ان بريطانيا
رفضت ان تشحن الى مصر سنة ١٩٤٨ شيئاً من الاسلحة والذخائر

على الرغم من ان الحكومة المصرية كانت قد دفعت ائمانها مسبقاً .
ومن هنا استشعر المصريون - ولم يكونوا في ذلك ظالمين - ان
بريطانية تحبس عنهم السلاح ساعة الازمة .

بقيت مسألة ذلك الرجل الذي كان مصرعه مسؤولاً عن السمة
المزعجة التي تثقل جواز سفري . ومن عجب ان وقائع هذا
الحادث ، التي أيدها المصادر الاميركية الرسمية ايضاً ، كانت
مختلفة جداً عما اورده صحف نيويورك عنه . وهذا ما جعلني
أنسأل الى أي مدى تملك الولايات المتحدة صحافة حرة حقاً .
كان مصرع مستر هاس Haas ، وهو يهودي اميركي كان في
القاهرة مع زوجته ، نتيجة لعوامل متعددة ، أولها انه حاول ،
يوم وفاته ، ان يلتقط صورة فوتوغرافية لجنازة مصرية منطلقة من
احد المساجد وهو عملٌ خليك بأن يُعتبر خروجاً خطيراً على
الآداب العامة في أي وقت من الاوقات . وكانت تلك الجنازة ،
لسوء الطالع ، هي جنازة ضحايا قنبلة اعتقد المصريون ان طائرة
اسرائيلية ألقتها على القاهرة فهدمت بعض ابنتها . وإذا كان
الرجل الذي يرتكب قباحة التصوير يهودياً ايضاً فقد استثيرت
نقمة الجمهور العارمة . وتجاهل مستر هاس اول الأمر صيحات
التحذير ، فعرض حياته لأعظم الخطر . والحق ان امرأته -
وكانت معه آنذاك - لم تمس غير مس رفيق فانقلبت الى الفندق
من غير أن تصاب بسوء ، في حين خرّ هو ميتاً وبقايا مصوّرته
الفوتوغرافية الى جانبه

وعلى العموم فقد كانت الحال في الاسكندرية ، وفي سائر

مصر من هذه الناحية ، توهم بالتناقض . كانت الاسكندرية تضم نسبة كبيرة من يهود مصر البالغ عددهم اربعة وستين ألفاً ، وكان كثير منهم موظفاً في الميناء أو حوله . ولقد تحدثت الى بعضهم فلم يبدو لي أنهم يوجسون خيفةً من أن تسبب لهم الحكومة متاعب ولكنهم كانوا قلقين لا يعوزهم التحدي . وفي مستهل الحرب الفلسطينية اعتقل بضعة آلاف من اليهود . وكان معظم هؤلاء أعضاء في المنظمات الصهيونية ، أو ممن وُجد في حوزتهم سلاح . ولكن المعتقلين جميعاً أُخلي سبيلهم ، باستثناء أولئك الذين اعتُبروا خطراً على الدولة ، في خلال ثلاثة اشهر . وفي تشرين الثاني لم يكن قد بقي في المعتقلات غير مئتي يهودي أو نحو ذلك .

وفي طول المدينة وعرضها كانت الجدران غاصة بشعارات تلتقي كلها عند هذا المحور : « مصر تقاتل الصهيونية » . وكان في ميسور المرء أن يرى بعض البيوت التي دمرتها القنابل ، ولكنها كانت قليلة جداً . والواقع ان الاسرائيليين شنوا ، منذ شهر نوار ، غارتين على الاسكندرية أحدثتا بعض الخراب وبعض الخسائر في الأرواح . وكان لمنظمة الاخوان المسلمين التي حلتها حكومة النقرشي السعدية والتي كان يتزعمها رجل شديد التعصب هو الشيخ حسن البنا أثر في هذا التخريب ايضاً . ويعزى الى الاخوان المسلمين نسف صحيفة ال « ايجيبشين غازيت » Egyptian Gazette التي يملكها البريطانيون .

ولكن التغيرات التي طرأت على الاسكندرية كانت ، من نواحٍ أخرى ، اجتماعية اكثر منها مادية . فمنذ الاستقلال عن

بريطانية سنة ١٩٣٦ تعاظمت موجة الوطنية المصرية واكتسبت طابعاً من العنف لم يزدده خَلَقَ اسرائيل الانكلو اميركي وما تلاه من اعمال كلها معادية تقريباً لمصر وحليفاتها العربيات إلا حدةً وضراوة .

وكان البوليس ورجال الجمارك يغالون في التدقيق في دراسة الكشوف وحمولات السفن . أما معاملتهم للسياح والمسافرين العابرين فكانت تنضح بروح الشهامة والفروسية . وكان التقاط الصور الفوتوغرافية في الميناء أو الشوارع محظوراً تحت طائلة السجن ومصادرة الآلة المصورة .

وواضح أن ريبة المصريين في كشوف الحمولات كاب لها ما يبررها . ذلك بأن عدداً غير يسير من السفن الاوروبية والاميركية قبض عليها وهي تحاول تهريب الاسلحة والذخائر الى اسرائيل بعد ان تزوّدت بالماء والطعام والوقود من الموانئ المصرية . وحادثة السفينة الموسومة بالـ « فلاينغ ترايدر » *Flying Trader* من اقوى الامثلة على ذلك .

ففي آذار ١٩٤٨ ، قبل انسحاب البريطانيين من فلسطين ، حاولت الـ « فلاينغ ترايدر » ان تفرغ شحنة مؤلفة من عربات مدرّعة * مزودة بصهوات خاصة للمدافع ، في تل ابيب . وكانت هذه المعدات - وهي اسلحة حربية من غير ريب - معبأة في صناديق مكتوب عليها « تراكتورات » لكي يُخدع رجال الجمرَك عن حقيقتها . ولم تكن تلك « التراكتورات » في الواقع

* يبلغ عددها الخمسين . [المؤلف]

غير معدات حربية فاضت عن حاجة الجيش الاميركي فاشتراها
الامير كيون الصهيونيون في فيلاديلفيا .

ولم تنتبه سلطات الجمرک البريطانية الى هذه الخدعة إلا بعد
إنزال اثنتي عشرة عربية من تلك العربات العسكرية الى البر .
فاحتجزت الثماني والثلاثين العربية الباقية وبعثت بها الى الهند حيث
وُضعت في بعض المستودعات ببومباي في انتظار عودة الشاحنة
الى الشرق الاوسط بعد قيام دولة اسرائيل (١٥ نوار) . وفي
١٥ تشرين الثاني عادت الـ «فلاينغ ترايدر» - وكان ربانها يهودياً
الى قناة السويس وعلى ظهرها ثمانية وثلاثون «تراكتوراً» مكتوباً
على كل من صناديقها بخط واضح كلمة « تل ابيب » . فكان
طبيعياً ان يُصادر الجيش المصري تلك المعدات الحربية .

ومن الامثلة على ذلك ايضاً حادث الـ « مارين كارب »
Marine Carp ، وهي احدى الناقلات التابعة للجيش الاميركي والمسيرة
بإشراف « الأخوة ليمان » Lehman Brothers . فقد حملت هذه
الناقلة اربعين يهودياً فارين الى اسرائيل ونحواً من ٦٤٠ حقيبة سفر
كبيرة . فكان من الطبيعي ان يدرك العرب ان هذا المقدار
الهائل من الامتعة الشخصية - ست عشرة حقيبة لكل مسافر -
لا ينطوي على ملابس ولكن على اسلحة وذخائر ...

وفي القاهرة التقيت عدداً من رجال السفارة الاميركية فأيدوا
جميعاً المعلومات التي حصلتُ عليها من طبيب الاسنان الاميركي
الدكتور هنري كورتيس Curtis المقيم في مصر منذ عشرين سنة
تقريباً ، والقاضي هنري عضو المحكمة المختلطة وكلاهما يقطن

الاسكندرية . وهناك سمعت اول ما سمعت بالصدمة التي نزلت
بالعرب والذعر البالغ الذي لقّهم بسبب من اعتراف ترومان
المتهوس باسرائيل ، وبسبب من السيل العرم من الرجال
والاسلحة المتدفق من الولايات المتحدة الى اسرائيل . واذ
تزاوج هذا الموقف مع رفض بريطانيا والولايات المتحدة بيع
السلاح للعرب ، فقد ادرك القوم بما لا يحتمل اللبس ان هاتين
الدولتين تناصران اليهود عليهم .

وفي الاسكندرية سمعت ، اول ما سمعت ، بالفائدة التي جنتها
اسرائيل من هدنة حزيران . ذلك بأن اتفاقية وقف النار قضت
بان يتعهد الفريقان بعدم استغلال الهدنة في تحسين مركزهما العسكري
وبعدم اصطناع خطوط التموين لغير نقل الطعام والادوية والمعدات
الطبية . والواقع ان اسرائيل خرقت أحكام هذه الاتفاقية خرقاً
موصولاً ، فاستقدمت من تشيكوسلوفاكيا وغيرها كل ما تحتاج
اليه من اسلحة وذخائر .

واكتشف مراقبو هيئة الامم العسكريون في مختلف المطارات
خرق اليهود لاحكام الهدنة . فما كان من اليهود الا ان طردوا
هؤلاء المراقبين من المطارات . فاحتجوا لدى الامم المتحدة ، ولكن
احتجاجاتهم لم تلقَ في ليك ساكسس غير آذان صماء .

وفي هذه الاثناء كان سيل من السفن ينقل الى تل ابيب وحيفا
مزيداً من الذخائر والطائرات ، وحتى الدبابات ايضاً . وهنا كذلك
أقصى مراقبو الامم المتحدة - وكانوا في العادة ضباطاً اميركيين
او بلجيكين او فرنسيين - عن الموانئ ولم يُسمح لهم بدخولها

الا بعد إفراغ السفينة بالكلية .

وما هي الا فترة قصيرة حتى امسى جيش اسرائيل احدث جيوش الشرق الاوسط وأحسنها تسليحاً . واستخدمت حكومة اسرائيل ما يزيد على تسعين طياراً اجنبياً من الولايات المتحدة وكندا وجنوبي افريقية لقاء راتب مقداره اربعمئة دولار شهرياً . فيما كان سلاح الطيران المصري - ومصر هي الدولة العربية الوحيدة التي كانت لها قوة جوية تستحق الذكر - يتولاه رجال لم يتمرسوا بهذا الفن فمن اليسير ايقاع الهزيمة بهم . واحب ان اضيف هنا ، بين معترضتين ، ان هؤلاء الطيارين المرتزقين كانوا على أية حال نكدي الطالع . صحيح ان الراتب الاسمي لكل منهم كان اربعمئة دولار مضافاً اليها النفقات ، ولكن هذا كان « قبل الضريبة » ، ومن هنا كان الطيارون الذين يتبقى لهم من رواتبهم مئة دولار صافية يعتبرون انفسهم ذوي حظ عظيم . ليس هذا فحسب ، بل ان معظمهم لم يكونوا يملكون من المال ما يمكنهم من العودة الى اوطانهم ، عندما انتهت عقود عملهم مع حكومة تل ابيب . فلا عجب إذا ما احدثوا لغطاً بالغاً ، بل قلاقل وشغباً ، عندما حملت هدنة رودس الى البلاد سلباً قلقاً ومؤقتاً .

ولكن هؤلاء الطيارين لم يكونوا وحدهم في الميدان . فقد توافد اليهود المدربون على القتال من مختلف انحاء اوروبة الى اسرائيل . فلم يدخل شهر تموز ١٩٤٨ حتى كان لدى الحكومة الاسرائيلية جيش نظامي مدرب مؤلف من ٥٥,٠٠٠ مقاتل تدعمه قوى اضافية يزيد عدد افرادها على عشرة آلاف . وكان

هذا الجيش الضخم يحارب ستة آلاف جندي مصري ، وثمانية
آلاف جندي سوري ، وخمسة آلاف جندي أردني ، ونحواً من
سنة آلاف وخمسمئة جندي عراقي .

ولقد أجمع مراقبو الأمم المتحدة كلهم على ان العرب انما خسروا
الحرب الفلسطينية بسبب من قبولهم هدنة حزيران والتزامهم احكامها .
ومن الاخطاء التي ارتكبها المصريون بخاصة احتفاظهم بجيب
الفالوجة ، وهو موقع أمامي ما لبث أن قطعت سبيل الاتصال
به ، بعد انسحاب القوات المصرية التي تدعمه ، قبيل اعلان وقف
النار . وكان المنطق يقضي بأن تنسحب تلك الكتيبة المقاتلة في
الفالوجة الى موقع يقيها خطر التطويق ومحسّن مركز الجيش المصري
الحربي العام . ولكن المصريين لم يفيدوا من هذه الفرصة . حتى اذا
استؤنف القتال عزل اليهود الكتيبة - وكانت بقيادة ضابط
سوداني يُدعى السيد طه - وطوقوها . والواقع ان هذه الكتيبة
الباسلة تمكنت - برغم فقرها الى الذخائر الحربية وبرغم فقدانها
الطعام باستثناء ما كان يرد عليها منه من مصر - ويلقى به اليها
بالمظلات تحت جناح الظلام - من ان تصدّ عدداً غير معروف من
الهجمات الاسرائيلية ، حتى لقد قرر الاسرائيليون آخر الأمر ان
من الخير لهم اجتناب الاحتكاك بالمدافعين عن الفالوجة حتى يعرضهم
الجوع . ومن ذلك الحين حتى قبول مصر الصلح الذي عُرض
عليها صمدت هذه الكتيبة الباسلة ولم تتزعزع عن موقعها .

وثمة بضع حكايات عن هذه الفترة ورجالها دخلت نطاق الاسطورة
ولم تعد جزءاً من التاريخ . ومع هذا فهناك قصة او قصتان سمعتها

من بعض شاهدي العيان . من ذلك أنه حين عرف الاسرائيليون ان رجال الفالوجة جائعون ، اقتربوا من خطوط الحامية المصرية رافعين راية السلام . واتفق الفريقان على ان تجري محادثة بينهما ظهيرة اليوم التالي في مقر القائد الاسرائيلي .

وفي الميقات المحدد وصل السيدطه وكبار اعوانه الى مكان الاجتماع ، وكان الاسرائيليون قد أعدوا مقصفاً (بوفيه) خليقاً بالفرنسيين الجبراء بالموائد وصنوف الشراب ان يعتبروه من الطراز العالي في الفخامة والترف . كان ثمة خروف محمّر كامل محشو بالارز واللوز والفسق . وورق عنب محشو ، وسلطات ، وزيتون ، ودجاج محمّر ، وحمص بطحينة ، وبقلاوة ، ولاحة طويلة بضروب اخرى من الطعام قصد بها الى إضعاف معنوية اولئك الرجال الجائعين والفت في عضدهم .

بيد ان القائد المصري كان يعرف النفسية الاسرائيلية معرفة حسنة . لقد قدّر ان ينطوي ذلك الموعد المضروب عند الظهيرة على شيء من مثل هذا . فحذر رجاله ودعاهم الى ان يظهر ولا مبالاة تامة بالطعام الذي سيواجههم العدو به . وكان من نتيجة ذلك ان فسدت خطة الاسرائيليين . ففي بطولة ، بلع المصريون رضاهم الذي سال على نحو غير ارادي بسبب من الروائح الحارة اللذيذة المنبعثة من المقصف ، وتجاهلوا ذلك الطعام الشهي ، قائلين انهم نعموا قبيل مغادرتهم خطوطهم بغداء ممتاز !

وكان السيد طه بطلاً قومياً حين وصلت الى مصر ، ولكن معنوية الجيش كانت منحطة جداً ، ومعنوية الشعب كذلك .

وكانت النعمة على حكومة النقراشي قد بلغت حداً جعلني اكتب مقالاً الى احدى المجلات الاسبوعية في نيويورك تنبأت فيه بمصرع الرجل في وقت قريب . واذ كنت مضطراً الى ان ابعث بتلك الرسالة من مرفأ محاييد غير خاضع للمراقبة فقد وصلت الى الولايات المتحدة بعد عشرة ايام تقريباً من مقتل النقراشي في ٢٨ كانون الاول سنة ١٩٤٨ .

ووجه المصريون تهديدات الى القنصليتين الاميركية والبريطانية في الاسكندرية ، وسفارتي الدولتين في القاهرة . وهبطت اسهم الولايات المتحدة وبريطانية الى الدرك الاسفل بعد ان عجز مصرع الكونت فولك برنادوت عن ان يغير من سياسة البلدين المحامية لاسرائيل . واجتاحت المصريين البارزين المتمتعين بأعظم النفوذ موجة من الاستياء المرير . واذكر ان عضواً في مجلس الشيوخ قال لي : « تزعم ، وانا مصدق لما تقول ، ان نيويورك ليست جزءاً من اميركة . ولكن اذا كانت الولايات المتحدة لا تملك نيويورك ، فان نيويورك تملك الولايات المتحدة ! » . وقال آخرون : « ماذا دهي الشعب الذي ما فتى يتشدد بالعدالة ويكثر من الكلام عنها ؟ ما الذي دهي الامة التي قهرت عسكري المانية واليابان ؟ كيف تميزون لسته ملايين صهيوني أن يسوقوكم بالصياح والشغب ، الى ان تنتحروا سياسياً في هذه البقعة التي تعد أخطر منطقة استراتيجية في العالم ؟ »

ولأول مرة التقيت في مصر امير كمين رسميين وغير رسميين يدافعون في اخلاص عن نيات بلادهم الطيبة ويبكون في الوقت

نفسه لرغبة الرئيس ترومان في ان 'يخضع مستقبل بلاده لعددٍ من
اصوات اليهود الانتخابية . وفي كل مكان كان الناس يرددون
الكلمة المنسوبة الى هاري ترومان : « كم صوتاً يملك العرب؟ »
ولأول مرة في حياة من الرحلة والاسفار يصبح الجواز الاميركي
عبئاً ثقيلاً على صاحبه .

وأياً ما كان ، فقد انتهت تحقيقات البوليس المصري الى
السماح لي بالترحل الحرّ في الديار المصرية . وهكذا امتطيت
متن الاكسبريس من القاهرة الى بور سعيد ومن ثم الى
القنطرة حيث وضع الجيش في تصرفي سيارة وسائقاً ، على ان
التحق بالـ « سيلفر ستار » في بور سودان على البحر الأحمر خلال
أربعة ايام . والواقع انها فترة لا تتسع لدراسة طويلة ، ولكنها
كانت خيراً من لا شيء .

وغزة هي مفتاح مصر وبابها . فعلى نحو مئة وسبعين ميلاً من
القنطرة يمر المرء بالعريش قبل ان يصل الى جدران المدينة الخربة
التي صانت مصر ، منذ سنة ١٥٠٠ ق م ، من الغزو البري من جانب
الحيثيين والأشوريين وصهيونيين العصر الحديث . كانت السكة
الحديدية قد 'نسفت وكانت الألغام منشورة ههنا وههناك ، ومع
ذلك فقد وصلنا غزة مع الغسق . وعلى طول الطريق كنا نتقدم
عبر خطوط من الجنود المصريين الذين كانوا يراقبوننا دون ان يأتوا
بحركة ما . وفي حالة واحدة كان استقبالنا مذهلاً . ويحسن بي ان
انصّ على اني كنت ، عام ١٩٤٨ ، أزن ما يزيد على ٢٢٠ رطلاً ،
والى ذلك فقد كنت ألبس سترة خاكية طويلة ذات اربع جيوب

وحزام ، وقبعة واقية من الشمس ، ونظارتين سوداوين ، وكان
شارباي اكثر ظهوراً للعيان ، فيما يبدو ، من الشعر الذي على
شفتي السفلى ، لأننا ما كدنا نقرب من جماعة من المشاة المصريين
حتى رحب بنا هتافاً مدوّ وتلويح بالقبعات استمرا الى ان ابتعدنا
عن مدى السمع عند احد المنعطقات . وفي ذهول ، لاحظت ان
سائق السيارة التي تقلني - ولم يكن عسكرياً - قد قوم ظهره
على نحو عسكري رفيع لدن سماعه الهتافات . وحين سألته عن
السبب في هذا التشريف كله اجابني ، وكان قد اختير دون غيره
لمرافقتي بسبب من معرفته الانكليزية :

« لقد حسبوك الملك فاروق ! »

وكان النهار رائعاً حاراً منيراً ، وكانت الطريق على الرغم من
ضيقها رقيقة ناعمة . وخارج حدود المدينة القديمة كان آلاف من
النازحين محشورين في ملاجئ مرتجلة في ميسورك ان تصفها بجميع
النعوت الا الحسنة منها . وكان المحظوظون منهم ينامون في قنوات
مقبية تحت الطرق او في خيام من قماش . اما الكثرة الكبيرة
من هؤلاء البائسين فاحتفرت ملاجئ لها في الرمل وكدست
الحجارة من حولها . ولم يكن ثمة ماء غير البحر المالح ، وغير ما
كانت ساحنات الجيش تنقله اليهم من الماء العذب . وكان السعداء
هم وحدهم الذين يملكون شيئاً من طعام ، لان الاغذية كانت قد
نفدت من غزة فليس فيها من الطعام غير الحصص الهزيلة المخصصة
للجند . والواقع ان كثيراً من الجنود آثروا ، في طواعة وطيب
نفس ، أن يجوعوا لكي يتمكن اللاجئون الفلسطينيون التعمساء

من البقاء على قيد الحياة .

وكانت الغارات الجوية كثيرة هنا ، وكانت جثث الضحايا قد وجدت قبوراً جوفاء في الرمل . وكان اسرى الحرب من اليهود قد جمعوا خلف الاسلاك الشائكة وقاية لهم من نقمة اللاجئين الفلسطينيين وابتغاء الحؤول بينهم وبين الهرب في وقت معاً . وكانت السلطات المصرية تقدّم الى هؤلاء ايضاً نصيبهم من الغذاء ، ولكنهم ما كانوا يقتصمون به مع العرب البائسين الذين شردوهم من ديارهم . وعلى أية حال فقد كان اللاجئين خليقين بأن يردّوا ذلك الطعام لو قدّم بعضه اليهم .

وكان السيد طه لا يزال مطوّقاً في الفالوجة ، وكانت إذاعته اللاسلكية تعلن يومياً عن حاجته الماسة الى الطعام والماء والذخائر الخاصة بالمدافع السريعة الطلقات من قياس ٢٠ و ٤٠ مم وبالاسلحة الصغيرة ، يعني الى ذلك الضرب من الذخيرة الذي تحتاج اليه بنادق المصريين الانكليزية ، والذي حبسه البريطانيون عنهم . وفي غزة قيل لي ان الوضع كله يدور على محور ما صار يعرف آنذاك بـ « قطاع غزة » . ولقد اخبرني الضباط المصريون بأنه لم يبق لهم شيء كثير يعملونه هناك . لقد حطمت معنوية الجند منذ ايام القتال الاولى عندما اوشكت الغارات الجوية الاسرائيلية ان تقضي على الجيش كله وقوافله كلها تقريباً . فالذي يبدو أن اليهود علموا ، من طريق الجواسيس ، بتقدم الجيش المصري فراقبوه من الجو ، حتى اذا بلغت القطعات الرئيسية بمدركاتها ومؤنها نقطة متوسطة ، او تكاد ، بين العريش وغزة ، حيث لم يكن ثمة ما يقيها

غائلة الغارات الجوية ، أمطرتها بوابل من قذائفها عشرات من الطائرات الاسرائيلية - وبعضها من طراز سبيتفاير ، وبعضها من طراز أخرى فيها طراز مسر شميت نفسه - ومزقتها شرّ بمزق ، بعد ان قتلت او جرحت آلافاً من رجالها . وهكذا سُلبت القوات المصرية بضربة واحدة . صحيح أنها ما لبثت ان تلقت إمدادات من الوطن ولكنها لم تستعدّ قطّ قوة الدفع التي حفزتها في الانطلاقة الاولى .

ولكن هذه المفاجعة لم تكن غير واحدة من عدد من الفواجع مُنيت به الجيوش العربية . ولعلّ من اهم الاسباب التي ادت الى خسارة العرب الحرب أن كل دولة من دولهم كانت تنهج نهجاً استهدفت به الربح على حساب حليفاتها . وبكلمة موجزة ، لم تكن ثمة وحدة في العمل او تنسيق للجهود .

وكانت الدول العربية قد رسمت خطةً ، لو نُفذت ، لأدت من غير ريب الى القضاء الاسرائيليين في البحر الابيض المتوسط بعد عشرة ايام من اندلاع نار الحرب . وكانت هذه الخطة تقضي بأن تتقدم القوات العربية في آنٍ معاً على طول الساحل من الشمال ومن الجنوب لتلتقي آخر الامر في حيفا . وكان الاتفاق قد تمّ على ان تزحف القوات السورية واللبنانية من الشمال ، وتزحف القوات المصرية من الجنوب . وفي الوقت نفسه يزحف الجيش الاردني (وهو القرة العسكرية الوحيدة التي كانت تتمتع بين الجيوش العربية بتنظيم حسن) من الشرق في اتجاه نقطة عند ساحل البحر بين حيفا وتل أبيب . أما في الشمال الشرقي فكان من مهمة القوات

العراقية ان تعبر نهري اليرموك والاردن وتنتشر على شكل مروحة
ابتغاء القضاء على مقاومة العدو في المناطق المطوقة أو المعزولة .
والتزمت مصر - والتزم الاردن بادىء الامر - الحطة
المرسومة . ومزقت القوات المصرية شرّ ممزق قبل ان توفق الى
مغادرة الاراضي المصرية نفسها ، كما شرحنا . ولكن الجيش
الاردني وفق الى شق طريقه في وجه مقاومة اسرائيلية متفوقة
حتى بلغ نقطة لا تبعد عن البحر الابيض المتوسط غير ميلين اثنين .
ولم تقم القوات السورية - وقد عاقتها سياسة دمشق المتروكة عن
العمل - باكثر من مناورات امتحانية حول المعازل الاسرائيلية .
في حين لم تبعد القوات اللبنانية كثيراً عن مواقعها الاصلية . أما
العراق فكان بين عاملين اثنين : ضغط بريطانية ، ورغبته الملحة
في نصره حليفاته العربيات ، وكان يرجو - في مأزقه ذاك - ان
تتوصل الامم المتحدة الى حلّ عادل للقضية . وإيّا ما كان فلم
تصل القوات العراقية الى ساحة القتال إلا بعد ان كانت لحظة النصر
العاجل قد ماتت .

وليس يدري احد على التحقيق ما الذي حمل الفرقة العربية
الاردنية على ان ترتدّ فجأة الى الاردن بعد ان شقت طريقها على
النحو الذي وصفنا وغدت على مسيرة صباح واحد من اهدافها .
ولكن ثمة مجالاً للاعتقاد بأن ضغط بريطانية على المسؤولين في عمان
هو السبب في ذلك .

٤ . في السودان والبحرين والكويت

وقضيتُ في بور سودان اربعة ايام اتاحت لي فرصة نادرة لاستعراض مشاهداتي في الاسكندرية والقاهرة وقطاع غزة وتلخيصها .

والواقع اني لاحظت أثناء زيارتي القصيرة لمصر ان معظم اليهود المصريين لم يكونوا صهيونيين وأنهم يعطفون على الحركة الصهيونية عطفاً ضئيلاً او لا يعطفون عليها البتة . صحيح انهم يستشعرون شيئاً من المشاركة الوجدانية نحو إخوانهم الراغبين في الفرار من اوروبة ، ولكنهم عاشوا مدة بين العرب جعلتهم يفهمون النقمة التي تعصف في نفوسهم بسبب من إخراج أهل فلسطين من ديار آبائهم واجدادهم تحقيقاً لنزوات بعض الساسة البريطانيين والأميركيين . والحق ان كبير حاخامي مصر ، حاييم نحوم افندي ، كان خصماً جريئاً للصهيونية ، يحاربها علانية . وكذلك كان كثير من اليهود المصريين الذين كشفوا لي عن اعتقادهم بأن الحركة الصهيونية سوف تنتهي بكارثة تصيب اليهود حيثما وجدوا .

وفي غزة شاهدتُ صوراً فوتوغرافية لبعض الفظائع البربرية التي

أنزلها الصهيونيون بالعرب رجالاً ونساءً وأطفالاً . وكان احد الضباط البريطانيين السابقين يصف لي في حماسة بالغة بعض تلك المشاهد . ولقد سألته ما اذا كان العرب قد ارتكبوا فظائع مماثلة ، فقد بدا لي ان الوحشية تولد الوحشية وان العرب الذين أخرجوا من ديارهم لن يعدموا فرصة للانتقام . فأقرني الضابط على ذلك قائلاً إن العرب لم يسكتوا على عدوان اليهود . فقد كمنوا للجنود الاسرائيلي ولأفراد عصابة شترن وقطعواهم ارباً ارباً بعد ذلك . ثم أضاف : « ولكن العرب أطفال في هذه الشؤون . فهم لا يقتلون في أناة وروية كمن يجد متعة في مجرد القتل ولن تقع عندهم على الوحشية المدروسة المقدرة التي تجدها عند اولئك الصهيونيين . إن ثمة شيئاً غير إنساني في جماعة شترن والارغون هؤلاء . »

و كنت طلبت الى المسؤولين المصريين ان يعطوني بعض الصور التي تمثل اعمال اليهود الوحشية ، فرفضوا برغم ما اوضحته من ان نشر هذه الصور يفيد قضية العرب كثيراً . لقد أشاروا الى جثث الرجال والنساء والاطفال الممزقة وقالوا : « كيف نستطيع ان نرفع رؤوسنا حين نسمح بنشر هذه المشاهد في بلادك ؟ إنهم إخوتنا وأخواتنا ، ولقد كنا عاجزين عن صيانتهم والدفاع عنهم ! » وحوالي ذلك الوقت وجه بعض اليهود البارزين في نيويورك - وقد روعتهم انباء مجزرة دير ياسين - رسالة الى ال « نيويورك تايمس » موقعة بأعضاء الدكتور آلبرت آينشتاين ، جاء فيها :

« ... ومن الامثلة المؤلمة على ذلك ما اقترفوه [اي افراد عصابة مانايم بيجين] في قرية دير ياسين العربية . فهذه القرية البعيدة عن الطرق الرئيسية

والتي تحيط بها الاراضي اليهودية لم تشترك في الحرب ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك فصدت بعض العصابات العربية التي ارادت ان تتخذ منها قاعدة لها . ومع هذا فقد هاجمت العصابات الارهابية الصهيونية في ٩ نيسان هذه القرية الآمنة المسالمة ، التي لم تكن هدفاً عسكرياً في القتال ، وقتلوا معظم سكانها ، وتركوا قليلا منهم على قيد الحياة لكي يستعرضوهم بوصفهم اسرى في شوارع القدس الجديدة .. »

ولقد أذهلت هذه الرسالة كثيراً من العرب . لقد عجزوا عن ان يفهموا هذه الظاهرة : كيف يلفّ الذعر نفراً من اليهود الاميركيين الى حدّ التعبير عن مشاعرهم على صفحات الجرائد ثم يسمحون لانفسهم بأن تسكتهم تهديدات الصهيونيين الاميركيين ؟ وكان من العسير عليّ ، بعض الشيء ، ان اشرح لهم الوضع ، ولكن كان ثمة اشياء كثيرة استعصت على التفسير آنذاك ، ولم يكن اقلها خطراً جبن الصحافة الاميركية واستخذاؤها . ولقد غدا اساسياً ان اوضح لهم ان المزاحمة العنيفة بين الصحف احوالها الى مشروعات تجارية اكثر منها مؤسسات انشئت لخدمة الجمهور ، وان تلك المشروعات التجارية كانت تعتمد على الاعلانات التي تردها من الشركات والمحال التجارية الكبرى . ومن هنا كانت دائرة الاعلانات في الصحيفة الاميركية هي التي تسيطر على سياستها في كل ما يتصل باليهود والصهيونيين ، وبذلك انتهت الصحف الى ان تصبح مجرد قوّادات لأولئك المعلنين . فكان من نتائج هذا ان اظهر الصحيح غير المفروض لا يمكن نشره في الصحف الاميركية الا اذا خلا بما يؤذي المعلنين او يسيء الى مصالحهم .

وفي سنة ١٩٤٨ كان همّ السودانيين الاكبر الطعام والحرية .
وكان رجال الادارة البريطانية - الذين اطلق عليهم السودانيون
الظرفاء، تمكماً، اسم «الآلهة» - قد سعوا الى ان يكتسبوا نفوذهم الفعلي
في البلاد من طريق إدخال الشيوخ السودانيين في الحكومة بوصفهم
قضاة ثانويين وجباة ضرائب . واذ كان هؤلاء الشيوخ يتقاضون نسبة
مئوية من الغرامات التي يفرضون والضرائب التي يجمعون فقد نشطوا
في اداء المهمة الموكولة اليهم في نشاط بالغ كانت ثمرته الاخيرة في
تلك الاراضي الجرداء ، انتشار المجاعة السرمدية . وبدلاً من
الطعام كان في السودان محصول من القطن 'فرض على السكان
لتغذية مصانع مانشستر البريطانية . ومن هنا اخذت النقمة تجتاح
السودانيين ، وشرع الجائعون منهم يفرون الى شبه الجزيرة
العربية رجاء أن يجدوا من يشتريهم ويتخذ منهم عبيداً أرقاء ،
في حين خاض المثقفون منهم غمار السياسة كوسيلة لانتزاع الحرية
التي يئسوا من الحصول عليها من طريق التدخل المصري والتي
ادركوا الآن أن عليهم أن ينتزعوها من المحتل بأنفسهم .
ولم يكن في بور سودان ما يساعدهم كثيراً . كانت سكة
الحديد تتحدر من الكشبان المحيطة بالخرطوم ، وكانت ثمة بلدة
صغيرة قاحلة في وسطها حديقة عامة أشد صغراً ، وبناء حكومي
ضخم ووثكنات ترفرف عليها الاعلام البريطانية والمصرية . وباستثناء
بعض الجنود المصريين من ذوي الرتب الدنيا لم تقع عيني على احد
من المصريين . أما الموظفون البريطانيون فكانوا كثيرين ، ولم
يكن عندهم شيء يقولونه .

واخيراً امتطيت متن الـ « سيلفر ستار » من جديد، فانطلقت
بي في البحر الاحمر الى الحديدة ونحا اليمينتين ومنها الى باب المندب
(باب الجحيم) ، فمحمية عدن فعمان في اتجاه الخليج الفارسي .
حتى اذا بلغنا مضيق هرمز - وهرمز هو الله الشمس ، وقد
خلع اسمه على المدينة القديمة التي كانت في وقت ما مفتاح الخليج
الفارسي - شاهدنا قافلة طويلة من ناقلات الزيت قادمة من مختلف
موانئ البترول - عبادان ، والبحرين ، والبصرة ، والكويت ،
ورأس التنورة - ومتجهة الى مختلف موانئ العالم الظمأى الى
الزيت . ونادراً ما كانت تمر لحظة من لحظات الليل او النهار
من غير ان تسطع فيها أضواء ناقلات الزيت الماضية في سبيلها .
وكانت الرايات التي ترفعها تلك الناقلات تشير الى انها تنسب الى
دول شتى .

وليس في ميسورنا ، من الناحية الجيولوجية ، ان نعتبر الخليج
الفارسي ميهاً صالحةً للملاحة ، لأن سفن الأثقال العميقة لا تطمن
الى سلامتها ، إلا في وسطه . ومن اجل ذلك تضطر سفن المحيط
العالمية الى ان تبقى ضمن نطاق الحدود الضيقة نسبياً للمياه العميقة ،
او الى ان تتخبط على محاذاة البر في الطين الذي يتحدر شيئاً بعد
شيء الى شواطئ بلاد العرب وايران المقابلة . وهذه الضحولة هي
احد الاسباب التي تجعل الحرارة في الخليج الفارسي مرتفعة الى حد
لا يطاق . والواقع ان الحرارة والرطوبة تكونان هناك ، في اشهر
الصيف ، قاتلتين او تكادان . فنادرأ ما يهبط الميزان الى ما دون
الدرجة المئة فهرنهايت ، حتى في الليل . وقد سجلت الحرارة في

الرملة قبلت ١٦٥ درجة في فترة الأصيل المبكرة وحتى في
كانون الأول كانت الشمس حامية على الرغم من أن خط العرض
الذي يقع عليه الخليج يراوح ما بين ٢٥ و ٣٠ درجة الى الشمال
من خط الاستواء .

وغربي مضيق هرمز وعلى طول شواطئ بلاد العرب الشمالية
الشرقية يقع ما يعرف بالمشيخات المهادية ، كما يعرف الساحل
نفسه بالساحل المهادين . وإنما تبدأ قصة ذلك منذ تلك الايام التي
وجد فيها شيوخ العرب ان السفن التجارية الهندية المثقلة بالذهب
ذات اغراء لا يقاوم . فكانت زوارقهم تعترض هذه الكنوز
العائمة ، لينطلق منها العرب ملوحين بسيوفهم اللامعة ، مقنعين
البحارة بأن يساعدوهم على التخفيف من اعباء السفينة العاملة على
خط التجارة الهندية الشرقية . وطوال بضعة عقود من الزمان
وجد شيوخ الجزيرة العربية في ذلك ترجية لأوقات الفراغ ، فيها
متعة وفيها فائدة .

بيد ان بريطانيا لم تجد في ذلك متعة ما . فدعي اسطول
صاحب الجلالة الى التدخل . وفي سنة ١٨١٠ انطلقت حملة عسكرية
من بومباي فغزت عمان وقذفت بنيران مدافعها عدداً من الموانئ
العربية ، حتى «دخان» في قطر الحالية . وبذلك أخضعت بريطانيا
تسع مشيخات عربية ، وصار في ميسور شركة الهند الشرقية
البريطانية ، سنة ١٨٢٠ ، ان تطمئن الى سلامة أغني البواخر
وابطائها فيما هي تجوز خياشيم بلاد العرب الشمالية الشرقية ،
المرتعشة . ولكن البريطانيين لم يقنعوا بذلك . فما كان منهم الا

أن اقنعوا الشيوخ في نوار ١٨٥٣ بتوقيع «معاهدة سلم سرمدية» ،
ثم جعلوا من الخليج الفارسي منطقة محكورة لهم من طريق
« الاتفاقية المانعة » Exclusive Agreement في آذار سنة ١٨٩٢
ولقد قيّدت هذه الوثيقة شيوخ الساحل المهادن - كما كان يُعرف
آنذاك - بأن يرفضوا كل عرض من عروض الصداقة تتقدم به
أيما دولة أخرى .

ومن ذلك الحين غدا سلطان البريطانيين على جزائر ومشيخات
شبه الجزيرة العربية الواقعة في الخليج الفارسي أو على ضفافه ،
كاملاً مطلقاً . وفي سنة ١٩١٤ عندما لمس الانكليز ان الديبلوماسية
الألمانية تعتزم اكتساب الخليج الى جانبها وجهوا بعثة الى الكويت
وسعوا ، في شيء من الاكراه ، الى إغراء شيخها الحاكم بأن يربط
مستقبل مملكته الصغيرة بمستقبل بريطانية .

واليوم تغصّ هذه المشيخات المهادنة بالمناطق الغنية بالبترو
وللمتدة من قطر الى رأس الخليج حيث تعدّ آبار الزيت
الكويتية هذه الدولة الصغيرة بازدهار دونه ازدهار ايّ من
الدول العربية . وليس لقطر من الثروة النفطية مثل ما
للكويت ، ولكن في « دُخان » يعبر خط اللاناب قاع الخليج
الضحل الى مصافي البحرين ، ويتقاضى شيخ قطر عائداً من
غير ان يكلف نفسه غناء تكرير النفط محلياً . وفي البحرين حلّ
الزيت محلّ اللؤلؤ واصداًف اللؤلؤ كمورد قومي .

والقت ال « سيلفر ستار » مراسيها اول ما اقتها في البحرين .
واذ كنت أحمل سمة امبراطورية من مكتب الجوازات البريطاني

في نيويورك فقد اعتقدتُ أني لن اجد ايما صعوبة في النزول الى
البرّ ، هناك . وكنتُ على خطأ ، ولكني لم أكتشف خطئي هذا
الا بعد ايام ثلاثة . ورسّت الـ «سيلفر ستار» وسط مجموعة من السفن
ترفع الاعلام الاميركية والبريطانية والبانامية . وكان الميناء على
شكل T ، ولكنها T مكسورة الجذع لأن الميناء يتصل عند
منتصف الطريق الى الشاطئ تقريباً - وعلى زاوية مائلة الى
الغرب - بمجاز ضيق يشكل الحلقة الاخيرة في مدى الثمانية ايام
الممتدة من شعاع رأس الميناء الافقي الى اليابسة . وإنما ينتهي
المجاز بالطريق الى المنامة عاصمة المشيخة . وإلى اليمين تقوم تلك
الشبكة الضخمة المعقدة العصرية الى ابعد الحدود من أساطين المصافي
وأنايبها ذوات الزوايا . وعلى مسيرة ميل واحد الى الورا تمتد
الطريق عبر مقبرة ترجع الى العهد الفينيقي لما يَرُدُّها الباحثون
بعد ، قبل ان يصل المرء الى المسجد الاموي * الراقي الى القرن
الثامن . والمنامة بلد صغيرة موحلة تغص بالمعتمدين ذوي العيون
المريضة ، والثياب الممزقة ، والاجساد الجائعة .

وبحسن بي ان أنصّ منذ البدء على اني هبطت ارض البحرين من
غير ترخيص رسمي . فالحقّ اني كنت طوال تطوافي في البلدة
خارجاً على القانون ، وكان في ميسور السلطة ان تلقي القبض عليّ
وترجني في السجن . ولكن الحظ كان حليفي . وكانت
الامطار تهطل في المنامة ، والطرق غير معبدة . وكانت

* هو المسجد المعروف بمسجد الخميس ولا تزال الكتابة الكوفية بادية على
بعض اقسامه . [المغرب]

السيارات التي تذرع الشوارع ذهاباً وإياباً تغرق السابلة بمياه الشوارع ووحولها . وكانت البغال الطويلة المليحة المجلوبة من الاحساء تقوم مقام الجمال والحمير في البحرين ، وكان سائقوها المتباهون - اللابسون عادة سترات عسكرية بريطانية بالية وقبعات خاكية ممزقة - اكثر اهتماماً وأشد رفقاً بالمساكين عابري السبيل .

وعلى الجملة ، فبرغم ان فقرهم بدا اكثر تطرفاً في هذه الارض الغنية من فقر السودانين في ديارهم الجرداء كان عرب البحرين مبتهجين غير متشكين . حتى الشحاذون كانت الابتسامة 'تظل' ايديهم المبسوطة التماساً للعطاء . وكان العمال الحاملون صفائح الزيت على متن الـ «سيلفر ستار» ينفقون فرصة الغداء راقصين على انغام المزمار الحزينة المعولة ، ضاحكين واثبين لكي 'يفروا' الناظر اليهم بالابتسام . وانما كانوا يفعلون ذلك تسلياً لانفسهم عن المتاعب او لعلهم كانوا يقصدون به الى ادخال الدفء على قلوبهم ، اذ لم تكن تعقب الرقص محاولة الى جمع النقود على الرغم من استمتاع ركاب السفينة وملاحيها جميعاً بالمشهد .

وقال ربان الـ «سيلفر ستار» إنه لن يُسمح بالهبوط الى اليابسة لغير الذين كانت البحرين هي طبيعتهم ومقصدهم . حتى اذا سألناه عن السبب في ذلك اجاب انه أمرٌ صادر من مستشار الشيخ الممثل لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وهو رجل يدعى المستر بيلي J. C. Pelly وكان مستر بيلي هذا يضيّق الحناق على الاميركيين بعد ان عاث ملاحو إحدى ناقلات الزيت الاميركية فساداً ذات

يوم في المناماة واقلقوا راحة السكان بعربدتهم الصاخبة . ومن ذلك
الحين قامت سياسته على هذا المبدأ : « يحظر على الاميركيين
النزول الى اليابسة . »

وحاولت ان اقصد الى الميناء واتصل بمقرّ مستر بيلى تلفونياً .
وبعد جهد ، ردّ علي سكرتيره سائلاً إياي عما ابتغي . فقلت إني
صحافي ، وإني احمل سمّة بريطانية . فهاله ذلك في ما تُخيل اليّ ،
ولكنه اخفى انفعاله وكرر القول بأن من المحذور عليّ ان اهبط
اليابسة . ثم انه فكر ثانية او ثانيتين واقترح عليّ أنّ أتصل
بمستر براون ، بمثل شركة « بابكو » في المناماة . وكذلك فعلت .
وقال مستر براون انه يمثل الشركة فعلاً ، وانه يرغب في أن يساعديني
على مغادرة السفينة ، ولكنه بريطاني ، وهو يكنّ الاحترام
البريطاني لمن في يده مقاليد السلطة . وهكذا ابدى مستر براون
« أسفه » ، واقترح عليّ أن اتصل بمستر كيوني Kearney ممثل
شركة « آرامكو » . و « شركة النفط العربية الاميركية » شركة
اميركية ، في حين ان « شركة نفط البحرين » يسيطر عليها البريطانيون
برغم ان شركة « ستاندرد اويل أوف كاليفورنيا » و « شركة
تكساس » تملكان فيها ، من الوجهة النظرية ، نصيباً مماثلاً لنصيب
البريطانيين . ومن هنا رجوت أن يسعفني مستر كيوني . ولكن
رجائي ما عثم ان خاب . لقد تحدث اليّ الرجل في ثقة وبروح
من التشجيع ، ولكنها كانت ثقة دبلوماسية ، وتشجيعاً
ديبلوماسياً . وقال لي انه سيدرس المسألة ويتصل بي . بيد انه
لم يفعل شيئاً من ذلك قط !

وكذلك سلخت يومين اثنين أسيراً على متن السفينة ، فكنت
أرى الى ناقلات الزيت ، من مختلف الهويات والجنسيات ، تشد الى الميناء
فتروي ظمأها الى البترول ثم تمضي لسبيلها . كانت السفن
الحربية الاميركية التابعة « لأسطول البحر الابيض المتوسط »
تقد التماساً لاستهلاكها الذاتي من الوقود ، في حين كانت ناقلات
الزيت التابعة للأسطول الاميركي تحمل أثقالاً من النفط الى البوارج
الحربية المرابطة في مالطة واستانبول واثينا . وذات يوم وفد
على ال « سيلفر ستار » شيخ ثانوي من شيوخ الأحساء ليقوم
بصفقة ما مع ربانها . وكان في ميسوره ان يتكلم الانكليزية بعض
الشيء ، فأحاله الربان عليّ اعتقاداً منه ان الشيخ قادرٌ عليّ « تهريبي »
الى اليابسة . أو هذا ما خيل اليّ على الأقل ، بالرغم من انه ليس
ينبغي لي ان اعزو هذه الفكرة الاجرامية الى الربان . فلعليّ
دوافعه ان تكون على غاية من البراءة .

وعلى اية حال ، فقد كان الشيخ معنياً الى ابعد الحدود بمجمهورية
باناما . حتى اذا سأله عن ذلك قال إنها دولة بحرية ضخمة . فذهلت
لقوله ذاك ، وذهل هو بدوره لذهولي . فقد كان الامر واضحاً
بالنسبة اليه ، لأن نصف السفن المشدودة الى الميناء كانت تحمل
راية باناما على سواربها ، ونجمة « كالتكس » الحمراء على مداخنها .
وحاولت ان اشرح الاشياء للشيخ . فقلت له إن شركات النقل
البحري الاميركية - رغبةً منها في اجتناب الاجور المرتفعة -
وغيرها من التبعات الثقيلة التي يفرضها القانون البحري الاميركي -
تضطر احياناً الى ان تسجل بواخرها لدى دولة صديقة تكون

قوانينها اقل صرامة . وأصاخ الشيخ ، واحسب أنه قد فهمني .
ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا يتعين على شركة ما ان تلجأ الى هذه
الاجراءات كلها . وتساءل لم لا توضح الشركة هذه الامور
للحكومة وعندئذ تعتمد الحكومة الى تيسير القوانين ، وهكذا
تتاح للشركة فرصة العمل على نحو مشروع في ظل الراية الاميركية .
ولم أعقب على هذه النقطة بشيء ، فقد كانت ثمة اشياء لا يمكن شرحها .
وكان الذي فهمني ، آنذاك ، أن القي نظرة على تلك القبور
الفينيقية والمسجد الاموي . وأسرت للشيخ بالمصاعب التي تكتنفني
فتأثر أبلغ التأثر . وقال إنه سوف ييسر لي سبيل النزول الى البر ،
وكان سائق سيارته يعرف المنامة كما يعرف وجه عباءته . وقد
وعدني بأن تعود بي السيارة الى السفينة عقب انتهاء الزيارة ، مؤكداً
أن التدبير الذي اتخذته مستر بيلى ينطوي على بلاهة لا تقل عن
بلاهة القوانين الاميركية التي تجعل من المتعذر على الامير كين
تسيير سفنهم بربح حسن .

وكانت سيارة الشيخ من طراز « بويك » ، وكانت سائقها
بارعاً . وفي حذر هبطت ركن التلفون فيما كان الشيخ يودع
الربان والضابط الاول . حتى اذا تهادى الشيخ العربي النحيل
بكوفيته البيضاء ، وعقاله الصوفي الاسود ، هابطاً في ابهة وجلال
المجاز الموصل ما بين السفينة والبر ، لحقت به . وكانت سيارة
« بويك » مفزعةً مترفاً ، فجلست في المقعد الخلفي مع الشيخ
وانطلق بنا السائق نحو البلدة .

واجتروا المقبرة والمسجد في طريقنا الى العاصمة . وعلى الرغم من
اني ، لحسن الطالع ، لم احتج أو اتدمر فقد اخذني شيء من القلق .

لم يساورني الخوف من ان أختطف ، ولكني تساءلت هل قد فهم الشيخ ما ابتغي فهماً صحيحاً وأدرك ان رغبتني قاصرة على زيارة المنامة دون الماضي عبر المجاز الخاص بالسيارات الى الاحساء* على ساحل شبه الجزيرة العربية ؟

ولكن الشيخ كان أرق حاشيةً مما كنت احسب . فقد وقفت السيارة بنا - أول ما وقفت - عند احدى الدكاكين ، وترجل السائق منها مزوداً بالمال والتعليمات ، وما هي إلا دقائق حتى عاد حاملاً كوفية اخرى شبيهة بتلك التي تغطي رأس الشيخ ، وعقلاً . وقال الشيخ إن غطاء الرأس هذا خليق به ان يكون تمويهاً واقعياً ، فاذا ما رأي رجل من شرطة بيبي أطوف في المسجد او في المقبرة الفينيقية خالي عالماً عربياً وتركني وشأني . ونجح التدبير أحسن نجاح . وقضيت في المنامة يومين كاملين (بعد ان اقبلت سيارة الشيخ لتقلني في اليوم التالي) وغمرتني السعادة ، لا لأني وقفت آخر الأمر الى زيارة المقبرة الفينيقية والمسجد الاموي فحسب ، بل لاني فقط مستر بيبي في فن المناورة والكر والفر !

والكويت تصغير كوت ، او قلعة . ولقد صانت « القلعة الصغيرة » مؤخر الخليج الفارسي هذا طوال قرون ، وجائز ان تكون قد صانته طوال آلاف من السنين . والواقع ان الاقتراب الى المدينة المسورة من المرفأ الفخم الرائع ينقل المشاهد القهقري الى عهد سرجون الاول والحضارة العربية الزاهرة في « أكّد » . ولا شك في ان « أور » الكلدانية قد تاجرت مع الكويت ، وان السفن الآتية من البصرة كانت تشق طريقها في عسر عند مدخل

* لعله يقصد الجسر الممتد ما بين المنامة والمحرق . [العرب]

جدار البحر القديم الضيق كما فعلت سفينتنا اليوم ، محتكة بجوانبه الحشنة فيما كانت تغادر لجج المرفأ المتلاطم الامواج التماساً للامن والسلامة خلف الجدار البحري . وهناك كانت بقايا اسطول اللؤلؤ والمراكب التجارية التي كانت تقوم برحلات يومية الى العراق ، على مبعده اربعين ميلاً بحرياً . ذلك بأن الكويت كانت ، كالبحرين ، مشيخة ينهض اقتصادها على اللؤلؤ ، وهي اليوم ، كالبحرين ايضاً ، أرض قوام حياتها الاقتصادية البترول .

وكان من حسن طالعني ان ارى الكويت وهي لا تزال جزءاً من شبه الجزيرة العربية . ففي مستهل الحرب العالمية الثانية تعطل تطور التسهيلات النفطية في الكويت ، ولم يُستأنف إلا سنة ١٩٤٧ . وبعد عام واحد كانت معمدات شركة نفط الكويت تعمل في « البرقان » وجبل « واره » و « الاحمدي » . وكانت شركة بكتل الدولية Inter. Bechtel Inc. تنشيء مرفأ وحوض سفن في الخليج الذي يقع قرب الاحمدي وجندت مؤسسة إ. ب. بادجر E. B. Badger البوسطنية جيشاً بكامله من الرسامين وواضعي التصاميم للعمل في البلاد . وشرعت مؤسسة ويمبي اللندنية في تشييد بناء مكنتي جديد متعدد الادوار في سوق المدينة . ومع ذلك فقد كانت الكويت لا تزال في شبه جزيرة العرب . ففي مدينة الكويت كان المرء يرتد ، في مثل نكسة المرض ، الى القرون الوسطى . كانت ثمة تلك الشوارع المتعرجة الضيقة التي تحيط بها البيوت العربية ذات الدور الواحد بجدرانها المسورة ، وجوانبها المطلية بالكس ، ونوافذها الضيقة

المقنطرة . وهناك تقوم الدكاكين التي تباع النفائس من اوروبية
 وشرقية وسجاجيد الصلاة الفاخرة والطُرُف النحاسية العربية .
 وانما بنيت الكويت في محاذاة الجزء الداخلي من اسوارها
 الترابية اللون ذات الفتحات التي تطلق منها النار . ههنا كانت
 المنازل والدكاكين . وفي الوسط ، عبر القصر والبواب الرئيسي
 المفضي الى الصحراء ، كانت رقعة الارض الواسعة التي ينهض فيها
 خان (فندق) القوافل والميدان . وهنا كان ويمي وشركاؤه
 يشيدون صرح « مصرف ايران » . وههنا كانت خطوط التلفون
 تمتد من قطب مؤصل راسخ الى زاوية من زوايا البناية فتبدو
 في غير موضعها وكأنها في فيلم « كوفاديس » * Quo Vadis
 وكانت الابواب تعلق عندما يهبط الليل خشية ان يتسلل الى
 المسكان بعض الغزاة من نجد او من الاحساء ، ولكن وراء تلك
 الابواب مطاراً تستخدمه الطائرات الاميركية العاملة في الخليج
 الفارسي . ومن خلال كل شيء ، تستروح عقب الجزيرة العربية :
 التهوة والتبغ القوي ذي النكهة الطيبة ، ورائحة لحم الضأن
 المطبوخ الشهية ، والزعفران ، والارز ، وعبير حب الهال وماء
 الورد ، وأحياناً رائحة الموت الكريهة المطوقة في الاجواء . ووراء
 الاسوار ، بين البلدة والمطار ، كانت تلتقى القاذورات ، وتطرح
 جيف الحمير والكلاب والجمال لتصبح طعاماً للطيور .

* رواية وضعها ساينكيويز Sienkiewicz (١٨٩٥) وتجري حوادثها
 في عهد نيرون مصورة ما لقيه المسيحيون الاولون من عظيم الاضطهاد والتعذيب .
 وقد اخرجت على الشاشة السينمائية .
 [المغرب]

وُقرع ناقوس يُنذر بتغيير يوشك أن يقع ، ناقوس ذو طابع
شخصي أكثر من خطوط التلفون بما لا يُقاس . وإنما كانت
الـ « سيلفر ستار » هي حاملة هذا النذير : شحنة من ثلاثين سيارة
طراز كروزلي . ولقد خيل اليّ حين بصرت بها ، عبر الميدان
من بناية ويمي الهيكلية ، ان ثمة اجتماعاً سياسياً . كان المكان
يغصّ بالعرب المهتاجين المتبسمين الذين يؤمنون بأصابعهم ههنا
وههناك ، ويفحصون الموتورات في كثير من العناية بعد أن رُفعت
أغطيتهما . وفجأةً قلت لنفسي : من هنا ستبدأ نهاية العربي وجواده ،
وتزول صورة رومانتيكية أخرى الى الأبد . فها هم ابداء الصحراء في
زيهم البدوي الكامل ، من الكوفيات السمراء والعقالات السوداء ،
الى العباءات الحشنة السمراء والصنادل المزركشة بالألوان الزاهية .
وها هي عدةٌ من سيارات كروزلي الصغيرة غير العملية في طرق
شبه الجزيرة العربية الرملية بسبب من عجالاتها الصغيرة ، تسترقّ
أهل الكويت وتستعبدهم . ولقد أخبرني مستورد البضاعة - وهو
عربيّ سوري - أنه تلقى طلباتٍ تستنفد الشحنة كلها ، وأن في
ميسوره أن يبيع أيّ مقدار من السيارات تبعث اليه الشركة به .
وأحسب أنه على صواب . فلم يبقَ ثمة كبير شك في أن يوم
الفرّس في شبه الجزيرة العربية قد انتهى . فالملك عبد العزيز
ابن سعود لم يمتطِ صهوة جواده ما منذ عشرات السنين ، ولكن
عنده اسطولاً ممتازاً من سيارات « كاديلاك » المذهّبة الخواشي ،
البالغة الطول ، والمجهزة بمواقد خاصة لأعداد القهوة وثلاجات
تزوّد الراكبين بشراب ماء الورد المثلج فيما تنطلق السيارة بهم في

عرض الصحراء .

ولقد حدثني ابن عم شيخ الكويت ، وهو أسود البشرة يحسن الكلام بعدة لغات وقد تلقى علومه في جامعة بيروت الاميركية ، عن أثر السيارة في تنوير الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة فقال : « ألا ترى اني حين أنطلق اليوم للصيد لا اصطنع بازياً ولكن بندقية ؟ اني اصطحب اربع شاحنات واربع سيارات ليس غير ، فأصل ورفاقي الى مواطن القنص في يومين اثنين . اما في الايام الحالية فكنا نسطحب مئة بعير او مئتين ، الى جانب اربعين فرساً في بعض الاحيان ، ثم لا نصل الى مواطن القنص حيث نصيد الطيور والغزلان الا بعد ثلاثة اسابيع . وكذلك نأخذ معنا في هذه الايام ، احياناً ، الشاحنة الضخمة التي تقل المولد الكهربائي لكي ننير الحيام ، وندير وحدة التبريد السريع حيث نضع اللحم . »

اجل ليس ثمة ريب في ان السيارة قد غزت شبه جزيرة العرب ، ولكن ما الذي سيحلّ بالجواد ؟ لقد قيل ان الجواد عضو في البيت العربي اكثر منه وسيلة من وسائل المواصلات ، وها هي ذي كلمات هذا الشيخ الداكن الى حد بعيد ، المنتمي الى الاسرة الحاكمة في الكويت ، تبدو وكأنها تستأصل استئصالاً كاملاً معالم الجواد النبيل باستثناء كونه موضوعاً للتباهي النسبي ، طبعاً .

وأحب ان انص ههنا ، بين معترضتين ، على أن العربي لا يعجب لأن يرى زنجياً على رأس الاسرة . فوراثة الزعامة القبلية

* Revolutionizing .

ووراثه المشيخة حق من حقوق الولد البكر بصرف النظر عن أمه . فإذا ما وُلد ابن الأمة قبل ابن الحرة أو الزوجة البيضاء فعندئذ يرث الزنجي الزعامة دون أخيه .

والواقع أن وليّ العهد ، في هذه الحالة ، وهو الولد البكر لعمّ الشيخ الحالي ، قد لا يرقى العرش بسبب من بعض التعقيدات الوراثية التي سيتذرع بها سائر أعضاء الأسرة الحاكمة . ولكنّ مردّد ذلك لن يكون بأية حال الى لونه الداكن . وحتى الملك عبد الله تزوج ، في ما يقال ، أمة سوداء من اصل سوداني أو صومالي . ذلك بأن المسلمين جميعاً سواسية في عين الله بصرف النظر عن لون بشرتهم . ولعل المسلمين هم اكثر شعوب الارض تسامحاً نحو أهل الاديان الكتابية الثلاثة على الاقل : الاسلام والنصرانية واليهودية . أما الآن فقد تغيّر الموقف بالنسبة الى الدين الثالث بعد أن غدت الصهيونية خطراً يتهدد الشرق الاوسط . وطوال تاريخ الكويت القديم ظلت مشكلة مياه الشفة من غير حلّ . وحتى وقت قريب ، عندما أمر الشيخ بتشديد مصفاة لتحويل مياه البحر الى مياه صالحة للشرب ، كان أهل الكويت يستوردون ماء الشفة من العراق . والى ان بدأت « كوك » K.O.C (شركة نفط الكويت) تبعث بزيتها الى البصرة كانت المياه تُحمل من شطّ العرب وتباع لاهل الكويت في ظروف من جلد الماعز ندية لامعة ، وكان السّقاء ، السّمّر المتجعّد والوجوه الحفاة ، يطوّفون بالماء في الشوارع المغبرة ، مطنطنين للظّامين باكوامهم المعدنيّة المتراكب بعضها فوق بعض طنطنة موسيقية ، صابّين مياههم السكّرية الملوّنة في لباقه واقتصاد من

الظروف الجلدية ذوات الصمام .

وفي سنة ١٩٤٧ ، عندما تدفق البترول من جديد على وجه الصحراء لم تكن اسباب الحزن الملازمة متوفرة ، فعقد اتفاق مع شركة نفط البصرة يقضي بأن تخزن هي نفط الكويت الى ان تُنشأ الصهاريج الخاصة به . وفي الوقت نفسه أدى تدفق الموظفين البريطانيين والاميركيين الاخصائيين في النفط ، على البلاد ، الى جانب مستخدمي شركة بكتل الدولية (I.B.I) ومؤسسة بادجر وغيرهم من عابري السبيل الاوروبيين والاميركيين الى نشوء أزمة في هذا السائل الحيوي - أزمة زادها حدة فقدان الجمعة والمشروبات الروحية وما اليها . واخيراً اقترح بعضهم أن يُفرد في كلٍّ من ناقلات النفط القاصدة الى البصرة حوضٌ خاصٌ بالماء وضروب الشراب . وهكذا حُلَّتِ الأزمة في الحال ، عندما القت سفينتان اميركيتان مراسيهما في مياه الكويت وأفرغتا من جوفيهما آلافاً من صناديق الجمعة . وما هي الا ايام حتى استشعر الغربيون من نزلاء الكويت أنهم بلغوا نقطة الارتواء أو التشبّع .

وثمة قليلٌ من الماء ، طبعاً ، على مبعدة ثلاثين ميلاً من البلدة أو نحوها ، ولكنه أجاج مالح ليس يصلح للشرب . وهو ممتداز لتزيت آلات الحفر . والانابيب تنقله عبر الصحراء ، كما تنقل جميع السوائل (عدا مياه الشفة) من مكان الى مكان في شبه الجزيرة العربية . فيصل الى تلال « البرقان » حاراً ، ذارائحاً ، ينبعث منه البخار في ساعات النهار ، وباردأ ذارائحاً في ساعات الليل . وفي كانون الاول من عام ١٩٤٨ كانت الكويت باردة جداً

آثناء الليل وعند الصباح الباكر . اما في خلال النهار فكانت الحرارة ترتفع الى درجة تضطر المرء الى تكييف الهواء . وفي شهر آب تبلغ الحرارة في الكويت مبلغاً خفيفاً . ولقد سجلت مرة في الرمل فبلغت ١٦٥ درجة فهرنهايت . ومن حسن الطالع ان حرارة الهواء دون ذلك وإلا لغلّى عمال النفط في ملابسهم كما تغلي القدر على النار . ومع ذلك فالحرارة مرتفعة الى حد لا يكاد يطاق ، حد يجعل الانكليز التابعين لشركة نفط الكويت يضيقون ذرعاً باكوأخهم المبنية من صفائح الحديد المتغصن كلما فكروا في المستخدمين التابعين لشركة بكتل الدولية (I.B.I) في بيوتهم ونوادبهم المترفة المكيفة الهواء .

وتعزّال « آي . بي . آي » بأنها تحيط موظفيها بكل ما ينسبهم أنهم غرباء عن الوطن . لقد شيدت نادياً رجباً ينتظم صالة لعرض الافلام السينمائية ، ومطعماً يقدم الى زبائنه شرائح لحم البقر المعروفة بشرائح همبورغ والنقانق الحارة والكوكاكولا والقهوة الاميركية ، ومختلف الاغاني والمقطوعات الموسيقية المسجلة وألعاب التسلية والمقامرة على اختلاف ضروبها . وفي المطعم ، كانت الألوان كلها هي ألوان « الغرب الاوسط » . * Middle West ، وفيها شرائح لحم البقر ، والبطاطا المقلية ، واللوبياء الخضراء ، واللوبياء الفرنسية ، والخبز المَعَدّ في الوطن ، والزبدة الطازجة ، والمخللات

* اقليم في الولايات المتحدة يحده من الشرق جبال « آليجيني » ومن الغرب جبال « روكيز » ، ومن الجنوب نهر اوهيو والاطراف الجنوبية من ولايتي ميسوري وكنساس . [المغرب]

على اختلاف ضروبها ، والشاي المثلج ، والقهوة المثلجة ، وصنوف
القطاير الطازجة . لقد كنت ضيفاً هناك ، ولقد بدت شبه الجزيرة
بعيدةً عن ناظري ، بعيدةً جداً .

وكان جيم والترز ، وهو اميركي ، يتولى إدارة شركة نفط
الكويت بالوكالة . ومنه عرفت ان الشركة تملكها مناصفةً
مؤسستان اثنتان هما شركة النفط الانكوا ايرانية وشركة نفط
الخليج الاميركية . ولعلّ ثروة آبار النفط الكويتي ضعفت ثروة
آبار النفط الايراني ، على الرغم من صغر مساحة المشيخة نسبياً .
ولولا مصافي عبادان الكبرى - وهي اضخم مصافي البترول في
العالم كله - لكانت شركة النفط الانكوا ايرانية خليقةً بأن
تستغني عن حقول الزيت الفارسية التي تكتنفها المتاعب ، وتكتفي
بحقول الكويت .

ولقد حكم الشيخ احمد آل جابر الصباح ، الحاكم الحالي ، الكويت
منذ عام ١٩٢١ عندما ورث العرش عن الشيخ التاسع من شيوخ
الاسرة الصباحية التي رقيت العرش حوالى منتصف القرن الثامن عشر .
والكويت كالبحرين ، موضوع نزاع بين العراق وايران على
اعتبار ان كلا من الدولتين قدّر لها ان تبسط سلطانها ، في فترة
من فترات التاريخ ، على جزائر الخليج وسواحلها . وكذلك تدعي
تركيا حقوقاً هناك للسبب نفسه ، على الرغم من ان مثل هذه
الدعوى تبدو واهنة تافهة بعد ان انحسر الحكم التركي عن شبه
الجزيرة العربية .

وانما يبني العراق دعواه على اساس من ان تلك الجزر خضعت

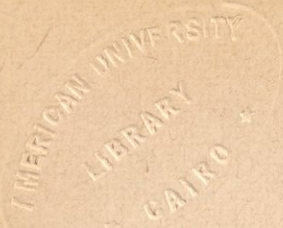
لسيطرة بابل قرونًا عديدة من الزمان . اما ايران فتبني دعواها
على اساس من انّ الجزر كانت تابعة لها في عهد الامبراطورية
الساسانية . صحيح ان أياً من الدولتين لن تنزع الاخرى نزاعاً
مسلحاً على هذه المنطقة ، ولكن من الزاهن ان بغداد وطهران
غدتا اليوم اكثر اهتماماً بها ، وبخاصة بعد ان حلّ الزيت محلّ
الؤلؤ بوصفه مصدراً أول للثروة في تلك الديار . وبجسبك ان تعلم
ان شيخ الكويت حصل منذ قريب على ٧،٠٠٠،٠٠٠ دولار
مقابل توقيععه على الامتياز الممنوح لـ «شركة نفط الكويت» .

وبرغم ذلك كله كانت الكويت لا تزال في القرون الوسطى
أواخر عام ١٩٤٨ . كان التجار يتركون ابواب حوانيتهم مشرعة
(ولم تكن لكثير من الدكاكين أقفال على الاطلاق) عند ما
يغادرونها الى البيت ، في فترة الاصيل ، ابتغاء الاستمتاع بالقيولة .
لم يكن ثمة بارات او حانات أو كاباريات . وفي السوق كان التجار
يتركون اكداساً صغيرة من الليرات الذهبية الانكليزية والليرات
المنقوش عليها صورة ماريا تيريزا ثمناً للخضر التي 'تحمل اليهم في
الصباح الباكر من المناطق الاكثر خصباً القائمة على طول الساحل
او عبر الخليج ، حتى اذا اقبل بائعو الخضر اخذوا نصيبهم العادل
منها وتركوا الباقي على مقاعد التجار او مناضدهم .

لقد تغير كل ذلك ، اليوم . فسيارات الجيب المطققة تتمايل
في الشوارع الضيقة مشتتة قوافل الحمير والجمال . والحانات والبارات
تنشأ وتنطلق منها الموسيقى المدوية . وتغيرت الدكاكين ايضاً ،
فظهرت على ابوابها أقفال من نوع « ييل » بعد الزيارات الاولى

التي قام بها العمال في آبار النفط الى المدينة ، وُهجرت عادة ترك
الذهب على مناضد الدكاكين هجراناً مفاجئاً . لقد غزت الحضارة
الكويت ، ولن ينقضي طويل وقت حتى تحتل زوايا الشوارع فيها
الكاباريهات وصالات رقص البطن ...

وكانت السماء قد اخذت تمطر عندما غادرت الـ «سيافر ستار»
مرفأ الكويت في الليلة الاخيرة من العام ، على نغمات الانخاب
والكوؤوس المترعة بالخر السويدي . فما إن أفقت من سباتي صباح
اليوم الاول من كانون الثاني ١٩٤٩ حتى وجدت نفسي لا في عام
جديد فحسب ، بل في حقبة من التاريخ جديدة . ذلك بأن
العراق ، على الرغم من أنه يغصّ او يكاد بالآثار القديمة ، هو
دولةٌ عصرية .



٥ . بين البصرة وبغداد

عندما انبثق النظام الشمسي ، آخر الامر ، من السديم
الداكن او من ايام شيء آخر سبب العهد الجليديّ الاخير ،
نشأت عن المجاري التي احدثتها ركامات الجليد الذائبة انهاراً
عديدة ، ولكن الفرات ودجلة والنيل اجتذبت فيما يبدو جميع
من بقي من البشر على قيد الحياة في هذا الجوار الحار نسبياً ،
واتبع الانسان وأسرهُ خط الجليد المنكفي من المنطقة التي
تؤلف اليوم الخليج الفارسي ودلتا النيل لينشئ مدن سومر
ومصر ، لان تاريخ الانسانية المدوّن بدأ هناك .

والحق ان العراق ، او بلاد ما بين النهرين - دجلة والفرات -
كان منذ عهوده الاولى ارض ريّ وقنوات . فقبل ميلاد المسيح
بالفي سنة سنّ حمورابي شرائع تلقى على المواطن تبعة المحافظة
على نظام الريّ . ففي ذلك الحين ، وطوال آلاف من السنين
قبله ، انتهى العراق الى ان يصبح بلداً أهلاً بالسكان بفضل هذا
النظام البديع من القنوات والسدود . وليس يدري أحد من
الذي ابدع نظام الري ولا متى امسى ذلك ضرورياً . وفي فترة
امعن في القدم طبعاً ، قبل ان تخرّب الفيضانات السنوية قشرة

الأرض الخارجية والغابات، كانت في العراق، من غير ريب، سلسلة
خصبة من الأودية والسهول. ولكن قبل التاريخ المسطور
بعهد طويل أكره الأهلون على أن يحفروا الخنادق لجري مياه النهر
إلى مزارعهم الضمأى لأن زوال الغابات أثّر في المناخ تأثيراً سيئاً،
فقلت الأمطار وتباعدت الفترات ما بينها. وهكذا كان العراق،
منذ آلاف من السنين، صحراء يسيطر الإنسان على خصبتها
الاصطناعي. وفي عهود الازدهار، أيام البابليين أولاً ثم أيام
الخلفاء بعد ذلك، بلغ مجموع السكان في العراق نحواً من ستة
عشر مليون نسمة. ولكن هولا كوخان غير ذلك كله.
فألى سنة ١٢٥٨ بعد الميلاد عُني أهل العراق بقنواهم وفقاً
لشريعة حمورابي. وقد جاء فيها:

« أن الرجل الذي يهمل أمر العناية بسده بحيث يؤدي فتقه إلى إتلاف
غلات جيرانه يدفع لجيرانه ثمن ما اتلف من غلاتهم .. أما إذا لم يكن في ميسوره
أن يعوض عن تلك الغلال من مخازنه فيلزم بدفع الدين إلى المتضررين، وإن لم
يفعل يبعث أسرته في سوق الرقيق »

ودارت الحياة في بابل على محور نهريها التوأمين. ولكن
النهرين التوأمين كثيراً ما حملوا الموت إلى البلاد أيضاً. ذلك بأن
بعض الفيضانات الكبرى كان يُغرق الماشية والناس ويهدم المنازل
والأبنية. وفي فصل الربيع كانت السيول العارمة تتدفق من
جبال تركية وإيران وسورية، فإذا بمياه دجلة تصب في بعض
الأيام ستة آلاف ياردة مكعبة في الثانية، في حين تصب مياه
الفرات نحواً من أربعة آلاف ياردة.

والواقع أن أمثال هذه الكوارث المتعاقبة يسّرت على العلماء

دراسة احوال العراق قبل التاريخ . لان سكان بابل كانوا اذا
 ما رأوا الى ركام الحجارة المتهدمة التي كانت بيوتاً لهم يأوون
 اليها ، عمدوا الى استنقاذ ما يستطيعون من اثاث منازلهم وأدواتها
 وشيدوا بيوتاً جديدة من المادة نفسها فوق انقاض المنازل
 الاولى . لقد نجت أرضهم ، على اية حال ، من الحراب . ومستوى
 البناء المرتفع قد يكفل لهم سلامة اضافية حين يقع الفيضان التالي .
 وللطوفان التوراتي «الذي خرّب حياة العالم باستثناء نوح واسرته»
 نظائر كثيرة في جميع الحضارات المعروفة تقريباً . ولكن ثمة قليلاً
 من الشك في ان الرواية التوراتية يمكن ان تردّ الى بابل .
 وفي العصر الحديث اثبتت الحفريات التي جرت قرب موقع المدينة
 القديمة ان حالة من الفيضان كانت قد جعلت الاراضي المجاورة
 غير صالحة للسكنى طوال عقود عديدة . وكشفت اعمال الحفر
 عن التنضيد المعتاد في مستويات الابنية الى عمق ثلاثين قدماً تقريباً ،
 حيث وجد المنقبون بدلاً منها ، على عمق احد عشر قدماً فقط ، طيناً
 غريلياً * . وعلى اثني عشر قدماً — او على نحو اثنين واربعين
 قدماً من السطح — كُشِفَ النقاب عن ابنية اخرى من ضرب
 مختلف اختلافاً طفيفاً ليدُستأنف التنضيد الطبقيّ Stratification
 بعد ذلك . ومن هنا نرى انه طوال مدة ترسّب فيها اثنا عشر
 قدماً من طين النهر كانت مدن العراق مغمورة بالمياه .
 وفي ذلك الحين كانت بابل تعرف عند السكان باسم كادينجيرا

* يراد بالغريل ، في الجيولوجيا ، الطين او الحصى او الحجارة او غيرها مما
 تجرفه السيول او الانهار . وتطلق اللفظة غالباً على المواد التي رسبت من المياه
 العذبة في الاطوار الجيولوجية الحديثة . [المعرب]

Ka Dingirra ، وعند سامي شبه الجزيرة العربية باسم « باب إيل »
وكلا الاسمين معناه « باب الله » .

وظلت بابل هيكلًا لألهتها الى ما بعد خراب المدينة نفسها
بزمن طويل . وعلى نقيض بغداد ، لم تدمّر بابل بأيدي فاتحيها
من الفرس والاعريق . فقد استسلمت في وداعة لداريوس الكبير
واحتلها جيش الاسكندر بعد انتصاره في أربيل * وكان
الاسكندر قد أقنع نفسه ، آنذاك ، بأن كاهن زيوس - آمون
المصري على صواب ، وأعلن نفسه إلهاً . ولكن وفاته بعد بضعة
سنوات بالملايا او بذات الجنب او بالسّم أدت الى زوال آلهة
بابل . إذ أهملت منذ ذلك الحين هياكلها ونهب آجر الابنية
والقصور لبناء قصور الملوك السلوقيين الذين خلفوه . ويقال ان
مدينة الحلة ، قرب بابل ، بُنيت كلها من الآجر البابلي .

فاذا انتقلنا من الفرات الى دجلة وجدنا خرائب المدائن في
« سلمان باك » قرب بغداد ، ولكنها دون بابل روعة وعظمة .
والواقع أن قاعة الملوك السلوقيين الكبرى بقوسها الفخم العجيب
هي كل ما تبقى باستثناء الخرائب القائمة تحت سطح الارض .
ونقيم الحكومة العراقية حرساً حول القاعة الكبرى . ويتغنّى
عازفو الكمان العرب ، المكفوفو البصر ، بالروائع السالفة . ولكن
بابل كانت قد بلغت نهايتها حتى قبل عهد الاسكندر ، ليرتقي
العراق قمة المجد من جديد بانطلاق الاسلام من شبه الجزيرة العربية .

* قرب نينوى حيث هزم الاسكندر جيوش داريوس الثالث عام
٣٣١ ق م . [العرب]

ولد محمد عام ٥٧٠ أو ٥٧١ ب. م. فلم ينتصف القرن السابع حتى نفذ الاسلام الى كل زاوية في شبه الجزيرة العربية. ولم ينتصف القرن الثامن حتى نفذ الى طول العالم المعروف آنذاك وعرضه ، ما خلا غابات روسيا والجزر البريطانية. لقد امتد من سمرقند والبادية السورية ومدن النيل الى سهول فرنسا الجنوبية وكتبان اسبانية ومراكش . وفي ما بعد حملت كلمة القرآن ، عبر الهند ، الى بلاد الصين والفلبين ، بل الى جزر التوابل في الارخبيل الهندونيسي .

ولكن حين بدأ اتباع الرسول يختلفون في شؤون المعتقد والتفسير ، كانت الخلافة قد انتقلت الى بغداد . وكانت بغداد خربة آنذاك ، فينبغي ان يجدد بناؤها . وعندما عيّن الخليفة المنصور موقع مدينته قرب ملتقى نهري دجلة وديالى كان يعيد في الواقع تشييد مدينة عرفت باسم «بغدادو» منذ الفين وخمسمئة سنة او يزيد . وهكذا غدت بغداد الجديدة عاصمة العالم المتمدن وقدّر لها ان تسيطر على الاسلام طوال خمسة قرون .

وما هي الا فترة حتى انشئت مدارس للكيمياء وغيرها من العلوم ، وبلغ الطب أوجه في جامعات بغداد. وشيدت المستنصرية ، وهي أول جامعة غير مذهبية في التاريخ ، على بضع مئة ياردة من قصر الخليفة . ولا تزال جدرانها قائمة — برغم وضعها الخرب — وكأننا نشهد على ما كان فيها من غرف تدريس ومنامة وما اتبع فيها من اصول في تنظيم مكاتب المطالعة تكاد تكون عصرية . وكانت ابنية الجامعة تنتظم ، الى ذلك ، صيدلية مجانية وحمّات

ومطعماً واسع الأرجاء. وفي عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)
وابنه المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) بلغ العلم الاسلامي مرتبة رفيعة
كان من ثمراتها ان غدت الكيمياء علماً وكانت من قبل فناً من
الفنون . ويعود معظم الفضل في تطوير الكيمياء على هذا النحو
الى جابر بن حيان المحفوظة كتبه اليوم في المتحف البريطاني. ولقد
كتب هذا العالم المسلم الذي دعي بحق جابراً (المصلح والمنظم) كتباً
باقية يؤذن بعضها ، في كثير من الوضوح ، بأنه فهم طبيعة العالم
الذرية . قال * :

« حين يتحد الزئبق والكبريت لشكلا مادة مفردة يحسب الناس انها تغيرا
تغيراً اساسياً وان مادة جديدة بالكلية قد تشكلت . ولكن الواقع غير ذلك .
فكل من الزئبق والكبريت يحتفظ بطبيعته الخاصة - وكل ما يحصل هو ان
اجزاءها قد اضعفت واقترب بعضها الى بعض اقتراباً شديداً حتى لتظن العين
انها قد شكلت مادة جديدة . ولكن لو استطاع المرء ان يوجد أداة تفصل ما
بين هذه الاجزاء اذن لظهر له ان كلا من الزئبق والكبريت قد احتفظ بشكله
الطبيعي الدائم ، فلم يتحول او يتغير . » **

والى جانب جابر هناك ابن سينا (ارسطو الطب) والكيميائيون
الكبار ، الرازي والمجريطي والعراقي وغيرهم . وانتقلت الثقافة العربية
الى اوروبا من طريق الاندلس حيث انشئت جامعات إسلامية اخرى .
ولكن الايمان الشعبي بالسحر والعرافة - هذا الايمان الذي جعل
العلوم الاوروبية وحشية غير إنسانية الى ما قبل ثلاثئة عام تقريباً -
حال دون الافادة من هذه الثقافة الا على ايدي اصحاب الكيمياء

* اضطررنا الى ترجمة الكلام عن الانكليزية لتعذر اهتدائنا اليه في الأصل
العربي . [المغرب]

** Chemistry to Dalton, Holmyard . Oxford University
Press.

القديمة وصناعة التنجيم الذين تكتنفهم الاسرار .
ولكن المغول استولوا على بغداد عام ١٢٥٨ ، فعرفت الديار
الاسلامية منذ ذلك الحين عهداً من الانحلال انتهى بالسيطرة
التركية . وخضع العرب وثقافتهم الرفيعة الحساسة لسلطان الاتراك
الأميين القاسي .

وفي هذا القدر من الكلام على التاريخ القديم كفاية . ولكن
ليس في ميسور احد ان يفهم العرب ووجهات نظرهم من غير ان
يعرف هذا الاساس التاريخي ، لان العرب لم يتغيروا الا قليلاً
في اربعة قرون ، ليعودوا من جديد الى المسرح السياسي وعظمة
ماضيهم العريق لا تزال ماثلة امام اعينهم . وحتى هنا ، في لحظة
البعث ، جوبهوا بالخيانة المتمثلة باتفاقية سايكس بيكو وانتداباتها ،
واخيراً بإدخال اليهود الاوروبيين ، غنوة ، الى فلسطين وإخراج
العرب منها .

وايأ ما كان فهذه البلاد التي كانت في يوم مضى مهداً للعرب
وللشرق الاوسط معاً - ارض الفجر هذه ، هي اليوم بلدٌ عصري
صاخب تضج في جنباته دندنة الحياة الحديثة . ففي بغداد ، مدينة
المساجد ، اتخذ الأذان مظهراً عصرياً الى ابعد الحدود . فبدلاً من
المؤذن المنعكس خياله الداكن على رخام المئذنة اللامع ينبعث
النداء الموسيقي القيثاري ، اليوم ، من امام ميكروفون قائم تحت
سطح الشارع فاذا بماذن المساجد جميعاً ، وليس يقلّ عددها عن
المئتين ، تردّد أذاناً واحداً ليس غير !
وفي محاذاة شطّ العرب الاسمر تابعت الـ « سيلفر ستار »

اجتياز المرحلة الاخيرة ، في ما يتصل بي على الاقل ، من هدفها .
والى يمين النهر العريض تقع ايران ، وغياض النخيل . والى يسار
النهر يقع العراق وغياض النخيل ايضاً .

واتخذت الـ « سيلفر ستار » سبيلها المهيّب بين صفوف من
النخلات الداكنة الخضرة ، الفارعة الطول ، منسقة تنسيقاً دقيقاً
ومنبتقة من التربة السمراء القائمة على ضفتي النهر . لقد بدا وكأن
تلك الغياض لا نهاية لها ، فهي تمتد الى الافق العريض وتنحل الى
كتلة جامدة من خضرة ، في وجه غمام الصباح الازرق .

ولكن شط العرب كان ينفور بالنشاط . فثاقلات الزيت
المنتسبة الى الدول على اختلافها تجري في صف واحد متثاقل
سواء مع التيار او ضده . اما حركات النقل المحلية فتمثلت او
كادت في نشاط السفن العراقية . ومن عجب ان عيني لم تقع ،
هناك ، على ايام سفينة ايرانية في ذلك اليوم الاخير من عام ١٩٤٨ .
وفيا نحن على منتصف الطريق الى البصرة تقدم منا زورق
الحجر الصحي العراقي ، وانبتق منه طبيب راح يقابل الربانة
والمسافرين قبل أن يتصل بالملاحين . وههنا أوجست خيفة . ذلك
بأن برنامج « منظمة الصحة العالمية » القاضي بأن يحمل المسافرون
لوائح موحدة تؤذن بأنهم ملقحون ضد مختلف الأمراض لم يخرج
الى حين الوجود الا حديثاً ، ولم اكن اميلك مثل تلك الاوراق .
وتلك كانت غلطتي أنا ، لا غلطة أحد سواي ، لأن شركة النقل
لقد نظرتني الى ذلك قبل ابحار السفينة ، ولكنني لم ألق بالآ
لتحذيرها . لقد ترحلت كثيراً فعلمتني الاسفار ان المحاجر الصحية

في جميع البلدان تؤكّد أكثر ما تؤكّد على التلقيح ضد الجدري .
ومن هنا قلتُ لنفسي إنني إذا حصلت على شهادة تلقيح حقيقية ضد
هذا الوباء أمنت المتاعب كلها .

وقبل سفري بيومين وفد عليّ صديق وأعلمني ان الرحلة التي
كنت على وشك القيام بها تقتضي تطبيق كتاب الطب الوقائي
كله . اذ يتعين عليّ ، نزولاً عند ارادة منظمة الصحة العالمية ، ان
اتلقح ضد التيفوئيد والباراتيفوئيد ، والحمى الصفراء ، والكوليرا ،
والزحار (ديزنطاريا) وغيرها .

ووطنت النفس ، على تجاهل هذه المسألة برمّتها لعدة اسباب :
اولها ان وقتي ما كان يتسع لذلك كله - وهو يستغرق نحواً من
ثلاثة اسابيع - ولم يكن يفصلني عن موعد الرحيل غير ثمان
واربعين ساعة . وثانيها اني ما كنت اريد ان أثقل على كبدي
بهذه الحقن كلها .

وهكذا تلقحتُ ضد الجدري وحصلتُ (بطريقة ملتوية) على
ورقة من تلك التي يسجل عليها الاطباء وصفاتهم . وكتبت عليها
ما يفيد اني تلقحت ضد مختلف الامراض السارية التي تخطر لامرء
ببال ، وان شيئاً لا يستطيع ان يؤذيني بعد اليوم الا من طريق واحدة :
رغبة الانسان او القانون في الابداء ، وقد وقعت هذه الوثيقة
بسلسلة من الخطوط المنمقة التي لا تحل رموزها ثم طويت لتنتشر في
ساعة الحرج . حتى اذا اقبل طبيب المرفأ استشعرتُ ان ساعة الحرج
هذه قد حانت . ولم يكن احدٌ قد ازعجني قبل ذلك ، ما
عدا طبيب المرفأ في الاسكندرية الذي ألقى على الشهادة المؤذنة

بتلقي ضد مختلف الامراض السارية نظرةً تمور بالريبة قبل ان
يأذن لدمائي غير الملقحة بالنزول الى المدينة .

ولم تكن المقابلة طويلة . فقد سألتني الطبيب - وهو رجلٌ
بدينٌ قصير القامة ذو وجه بشوش - أن اجلس ليمضي هو في
مهمته . وكانت انكليزيته ممتازة . فتناول شهادتي التلقيحية
ودوّن ملاحظة حولها في اوراقه . ثم وجهه اليّ السؤال الذي
توقعته : هل احمل شهادة تلقيحية من شهادات منظمة الصحة
العالمية ؟ فأقررتُ باني لا افعل ، فاكفهرتُ وجهه ، وقال ان
الوامر الصادرة اليه تقضي بأن يحمل جميع زائري العراق شهادات
تلقيح ، فأجبتُه قائلاً : اذا كانت المسألة قاصرة على ذلك ففي
استطاعتي ان اقدم شهادة بهذا المعنى . قلت ذلك واخرجت
شهادتي المطوية .

وتناول الطبيب تلك الورقة ، فأخذها الذهول بعض الشيء ،
وحدجني بنظرة خاطفة ، ثم استأنف قراءتها . حتى اذا تمّ له ذلك
رفع عينيه نحوي كرهةً اخرى وارتعش فمه ارتعاشاً طفيفاً وهو
يغمغم :

« تدري ، قد تكون هذه الشهادة كافية حقاً ... » والقي
نظرةً اخرى تكاد ترشح بالاجلال ، على تدويري الملفق ذاك ،
« ولكنك اول رجل في العراق لا تترك طهارته المشهود بها عملاً
ما للصناعة الطبية ... من اجل ذلك أدعك ، يا صديقي ، للرجل
الذي زوّدك بهذا الاعتراف ! »

ونفض الطبيب عن كرسيه ، وانحنى في احترام ، واوماً بيده الى

الباب . فخرجت حاملاً اوراقى معي .

ولم أحتج اليها بعد ذلك قط ، ذلك بأن احداً في الشرق
الايوسط لم يتكشف عن اهتمام بالغ بأمر تلقّحي ضد الأوبئة ،
منذ ذلك الحين . وبسبب من هذا أقيمت شهادتي المزورة في
عرض البحر ، بعد بضعة أشهر ، بين بيروت واثينا !

وصلنا الى البصرة عشية العام الجديد ، فدعانا القنصل الاميركي
الى النادي المحلي فيها . كانت سهرة مائعة حفلت بالغناء والويسكي
الاسكتلندية . ورقص القوم شيئاً ما ، حتى اذا وفد القنصل
السعودي العام ، وهو رجل مهيب يرتدي عباءة سوداء مذهبة
الحواشي ويعتمر كوفية بيضاء ، ذكرتُ أنني نصّحتُ بأن ابدى
له رغبتى في الحصول على سمة الى المملكة السعودية . فلقيني القنصل
بأعظم الكياسة ، ولكنه رفض مطلبي في لطف بالغ أنساني المسألة
كلها . صحيح اني كنت أتوقع الرفض ، ولكني ما كنت أحسب
أنى سأقع عليه مصوغاً في هذا القالب اللفظي الفاتن . حتى لقد
وجدتني آخر الأمر مضطراً الى إزجاء الشكر الى القنصل
والانسحاب في تلطّف واحترام .

ووفد بعد ذلك حاكم المنطقة العسكري . وهو عراقي قريب
الى النفس يجيد الكلام بالانكليزية ويتمتع بمعرفة تاريخية غزيرة .
وكان يحزّ في نفس حمدي بك - وهذا هو اسمه - امران : تطور
الحرب الفلسطينية في غير صالح العرب ، وذلك الصقيع غير
الاعتيادي الذي عرفه العراق آنذاك والذي أئلف حديقة وروده

اتلافاً كاملاً . وبرغم حزنه هذا ، دعاني الحاكم العسكري ، ودعا
روس غارلين ، احد موظفي شركة الطيران عبر العالم (T.W.A) ،
الى غداء ممتاز في اليوم التالي . لقد وصف لنا القتال في فلسطين وتفرق
كلمة الدول العربية بعد الهدنة الأولى ، فلم تكن الصورة زاهية
على الاطلاق . ثم استطرد الى القول إن الحلم الجميل الذي راود
العرب بعد هزيمة المانية واليابان قد تبدد الآن بالكلية . وبعد
خيانة فرنسا وبريطانية للأمة العربية فتح العرب اعينهم على خيانة
جديدة من جانب الولايات المتحدة الاميركية . لقد بدا للعرب ،
وقد بُعثوا من جديد بعد غياب طويل عن المسرح السياسي ، انهم
لا يلقون غير خصوم يناصبونهم العداوة ، واصدقاء يخونونهم في الخفاء .
وكان روس غارلين وامرأتان اميركيتان من القاهرة كلّف
برعايتهما ، قاصدين الى بغداد في القطار الذي اعتزمت ان استقله
الى العاصمة العراقية . فسعدتُ برفقتهم . وبفضل من حسن
وفادة مضيفنا وعناية شركة الطيران عبر العالم T.W.A وفقنا الى
الحصول على زجاجة أو زجاجتين من الويسكي . وحين قدّم اليّ
حمدي بك سلة من الفاكهة أستعين بها على الرحلة الطويلة شعرنا
بأننا زوّدنا خير زاد .

والمسافة بين البصرة وبغداد تبلغ نحواً من اربعمئة ميل
بالسكة الحديدية . ويمرّ القطار في طريقه ذاك بأور وبابل ، ولكنه
يجوزهما تحت جناح الظلام فليس في ميسورنا أن نرى شيئاً . وفي
الساعة الثالثة بعد الظهر غادرنا مضيفنا وسط حديقته الوردية التي
أهلكها الصقيع وامتطينا متن سيارة عمومية الى المحطة حيث التقينا

« الأمانتين » الموكولتين الى غارلين ، وهما سيدتان فانتتان في ربيع العمر يعمل زوجاهما في مكاتب « شركة الطيران عبر العالم » في القاهرة . وكانتا في ما يبدو تنفقان اجازتهما في سياحة تقومان بها في العراق وإيران ، على أن تغادرا بغداد ، بعد ، الى طهران بالطائرة . ذلك بأن مطار بغداد لم يكن قادراً على استقبال الطائرات ذات المحركات الأربعة في سهولة ويسر . صحيح أن المطار شهد بعد ذلك إصلاحات غدت تمكنه من استقبال طائرات من مختلف الحجم ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن قد تمّ عام ١٩٤٩ .

وكانت إدارة السكة الحديدية تسيّر بين مدينتي العراق الرئيسيتين قطاراً مكيفّ الهواء مرةً او مرتين في الأسبوع . ولم نكن قد أحسنّا اختيار اليوم . وأياً ما كان ففي الساعة الرابعة تماماً أقبل القطار ، وبعد خمس دقائق انطلق بركابه المستريحين ، قليلاً او كثيراً ، في حافلات الدرجة الاولى ذات الاركان التي يتسع كل منها لاربعة مسافرين . واقتسمت انا وروس ركناً ، في حين استقلت السيدتان بركن آخر غير بعيد عنا . وفي الوقت نفسه لم يكن ثمة ما يجول بيننا وبين المشاركة في احتساء الويسكي والاستمتاع بالفاكهة في ركن واحد . وهكذا فعلنا .

وقدّمت الى كل منا ثلاث قسائم لوجبات ثلاث من الطعام . وكان طعام العشاء سائغاً ولكنه غير مشير : سمك مشوي ، ولحم ضأن ، وسلطة ، وحلوى ، وقهوة . ثم ويسكي وفاكهة . وكانت عربية الطعام باردة ، فلم تكد الزجاجة تفرغ حتى انفضّ

السَّامِر .

وأحسب ان الساعة كانت الثانية عندما شرعت القشعريرة تنفذ الى عظامي . لقد انفقتُ الهزيع الاول من الليل أكحل الطرف بضوء القمر الذي يغمر الصحراء الرملية الواقعة ما بين البصرة وبغداد . واخيراً ، حوالى منتصف الليل ، استرخيت في فراشي الوثير ، ذي البطانية المزدوجة ، واستسلمت للرقاد . ولكن القشعريرة غلبت عليّ ، فنهضت من نومي مرتعش الاوصال . وكان الفراشان المخفوضان يستغرقان المجال كله ، حتى اذا حاولت ان أتلصص معطفي - وهو شيء ثقيل من صوف انكليزي كثيف - لم أهتم اليه . فما كان مني إلا أن غطيتُ جسدي المقرور بمطر روس وبجميع الملابس التي نزعته قبل أن ألبس البيجاما . وكان الضوء المعتم فوق رأسينا غير مسعف البتة . وكان مفتاح النور العادي قد أخفي في براءة وتأنق . وعند الصباح - الصباح القارس اللاذع - أفقت من سباتي لأجد أن روس قد اكتشف موضع المعطف ، وأنه لا يزال نائماً تحته في دفء ورفه يشيران الحسد ! وفي الميقات الموعود بلغنا بغداد ، وامتطينا سيارة اجرة عبرت بنا النهر الى المدينة القديمة حيث يقوم « اوتيل سندباد » في شارع الرشيد . ولقد حدثت في الكويت عن اوتيل سندباد هذا ، فرغبت في النزول فيه . إنه لم يكن خير فنادق بغداد ، ولكنه بعيد عن ان يكون اسوأها . ولعل مطعمه خير مطاعم العاصمة العراقية كلها . وأياً ما كان ، فقد وجدوا لي غرفة ونزعوا أصابع الجليد المستدقة المتدلية من انابيب الماء في الحمام ، وجاءوا بأربع مدافئ

لمساعدة الحرارة الضعيفة المنبعثة من جهاز التدفئة المركزية . كان ذلك الشتاء أقسى شتاء شهدته البلاد منذ خمسين عاماً . فقد هبطت الحرارة في بغداد الى نحو من خمس درجات فوق الصفر بمقياس فهرنهايت * . وعلى اية حال ، فهأنذا في بغداد ، نزلةً اخرى ، ولشد ما تغيّرت بغداد عما كانت عليه في آب ١٩٢٨ !

* ان الدرجة ٣٢ فوق الصفر في مقياس فهرنهايت تعادل درجة الصفر في مقياس سنتيغراد . [المعرب]

٦. في عاصمة الرشيد

لا يربط عاصمة الرشيد القديمة بماضيها غير حلقات منظورة قليلة.
فالمدينة الجديدة المستلمة على ضفتي دجلة موطن كثير الغبار ليس
له طابع مميز غير مساجده وسوقه الكبيرة وبقايا الاسوار التي هدمها
الأتراك العثمانيون في القرن السادس عشر . وعلى طول تحصينات
« الباب الوسطاني » الرائعة تبدو المدافع واكداس القذائف
الحديدية وكأن المعركة الحثامية لم ينقض عليها غير شهر او
شهرين . وكل من تلك المدافع على اختلاف ضروبها وحجومها
تحفة اثرية حقاً . وقد صنع بعضها في فرنسة ، وبعضها في النمسا ،
ولكن كثرتها الكبيرة سبكت في مصانع الحديد العرب
بدمشق .

ويرقى المسجد الجامع القائم قرب ساحة الملك فيصل الاول
الى العهود العباسية . ومئذنته المنحنية إنما التوت ، في ما يقال ،
من اثر النيران التي اضر بها المغول الغزاة عام ١٢٥٨ بعد استيلائهم على
المدينة . اما المسجد الملكي القائم عند الباب الشمالي من بغداد ، فيمتاز
بقبته الرائعة . وهو من اضخم المساجد في المدينة . والحق ان الجوامع ،
او بيوت الله التي تقصد ابتغاء التعبد والصلاة في المحل الاول ، اقل

زينة وزخرفاً ، في الأعم الأغلب ، من المساجد التي هي مدارس
للتعليم الديني أكثر منها مجرد بيوت للصلاة ، كمسجد الكاظمين
الفخيم بمآذنه الأربع الذهبية مثلاً .

وفي العراق مسجد كربلاء وهو مكان مقدس عند الشيعة .
ففي كربلاء استشهاد الحسين ، ابن فاطمة بنت الرسول ، بعد أن
هزم الامويون جنده المدافع عن حقه في الخلافة .

وتنقسم بغداد ، مثل بابل القديمة في عهد نبوخذ نصر ، الى
بغداد الشرقية وبغداد الغربية يفصل ما بينهما نهرٌ هو ههنا نهر دجلة .
وتستأثر بغداد الغربية بمعظم المعالم الاثرية : القصر العباسي ،
والسوق ، والباب الوسطاني ، وضريح من ذلك الضرب الشبيه
ببيوت النحل يقال انه يحتوي على رفات الملكة زبيدة زوجة
هرون الرشيد .

وشارع الرشيد ، هو شارع بغداد القديمة الرئيسي نفسه .
وهو يمتد في موازاة نهر دجلة ، وينهض فيه القصر العباسي ، والسوق ،
والفنادق ، كما تنهض في نقطة أبعد الى الشمال الضواحي وبيوت
اللهو ، وهي نواد ليلية أنشئت على الطرازين الايطالي والفرنسي
حيث يقدم اهل الفن الاوروبيون والاوروبيات بضاعتهم ، وهي
عادة بضاعة من الدرجة الثالثة ، ويقدم المطبخ الجيد ، الى حد
معقول ، بضاعته . أما الملاهي العربية فممنشورة في طول العاصمة
وعرضها . وكان احدها يدعى « ملهى الروكسي » ويقع غير بعيد
عن شارع الرشيد قرب « اوتيل سميراميس » . ولقد زرت ذلك
الملهى ، وانتظرت حتى العاشرة ، عندما بدأ البرنامج ، ثم صبرت

نفسي على ساعتين من الفكاهات غير المحتشمة والموسيقى الابتدائية التي تؤلف مقدمة لرقصات البطن ، وهي مادة البرنامج الرئيسية . وفي بغداد ملاء كثيرة غير « ملهى الروكسي » ولكنها متشابهة كلها ، وزيارة الى احدها تغنيك عن ان تقصد الى سائرهما . وفيها ايضاً عدد من دور السينما المجهزة تجهيزاً فنياً حسناً ، ولقد سعدت بان أشهد فيلم « لص بغداد » (الذي استوحى هوليوود موضوعه من الف ليلة وليلة) وانا في تلك المدينة . وكان النظارة من العرب يغربون في الضحك طوال عرض الفيلم . ولكنني لم اوفق الى معرفة ما اذا كانوا يضحكون للشريط ام عليه . ذلك بان الذين وجهت اليهم هذا السؤال كانوا من اللطف والكياسة بحيث لا يستطيع الاطمئنان الى آرائهم . كان واضحاً انهم حاولوا ان لا يجرحوا شعوري بوصفي امير كياً .

وكان اوتيل سندباد ، حيث قضيت القسم الاكبر من ثلاثة اشهر عشتها في العراق ، يقع في منتصف بغداد تقريباً بين ساحة فيصل الاول ومستودعات « نفط الرافدين » . إنه بناء ذو ثلاثة أدوار ، شيد على شكل U مربعة تطل على دجلة . اما غرفه فتتأرجح ما بين الجناح الواسع الى الغرفة المفردة الصغيرة ذات الحمام . وقد نزلت واحدة مثل هذه تقع عند الطرف الجنوبي من الـ U فهي لا تستقبل الشمس الا بعد الظهر . وحتى تلك الساعة المتوهجة كانت الغرفة أشبه شيء بجحرار في ثلاجة . وبرغم المدافئ الكهربائية والمدد الموصل من المياه الحارة كان الشارع اكثر دفئاً من غرفتي بعد الساعة العاشرة قبل الظهر .

وكان الدور الارضي ينتظم صالونات الاستقبال والمشرّب
والمطعم . وكان في المشرّب ، وهو الركن المفضل عند ضيوف
العاصمة من مهندسي النفط القادمين من شبه الجزيرة العربية
وكر كوك ، مستوقدٌ صغير وبارٌّ طويل ، وعدد من الطاولات
الصغيرة . وههنا حل الفستق الحلبي واللوز الاخضر محل فستق
العبيد والبسكويت اليابس المملح . وكانت زجاجة الجعة التي
تتسع لربع غالون تباع باربعمئة فلس . واذ كان هذا المبلغ
يساوي اربعة أعشار الجنيه الاسترليني في وقت كان فيه الجنيه
لا يزال مساوياً لـ ٤،٨٣ من الدولار ، فقد تبدّى لي بعملية
ذهنية بسيطة أن زجاجة الجعة تلك خليقة بأن تكلفني نحواً من
دولارين اثنين - وهو سعرٌ اكرهني على إيثار العرق الذي تباع
الكأس الثقيلة منه بخمسة عشر سنتاً ليس غير . وكانت بعض زجاجات
العرق تحمل علامات تجارية تمثل كبشين يتناطحان ، وكأنما هي
نبوءة بالذي سيفع في الصباح التالي . لقد كان واضحاً ان مقطّر
تلك الحُر كان واعياً أتم الوعي حقيقة البضاعة التي يقدمها الى
الشاربين !

وكان المرء يستشعر الحاجة الى شراب دافئ بعد غروب
الشمس . وفي الصباح الباكر كانت الحرارة تحوم حول نقطة
الانجماد ، وكانت ثمة حاشية من الجليد على طول دجلة . وبعد
فطور خفيف من البرتقال والليمون الحلو كان الفندق يقدم الى
زبائنه الانكليز عصيدة من النوع المعروف بالـ porridge ويقدم
الى غيرهم بيضاً وضروباً من لحم الضأن . وكنت لا أفرغ من

تناول فطوري حتى أردتدي معطفي الثقيل وأمضي الى سراي
الحكومة. فليس ينبغي ان يُنسى اني قدمت الى العراق لأستطلع
وجهة النظر العربية في حرب فلسطين . وفي كانون الثاني سنة
١٩٤٩ كان يرين على تلك الحرب هدوء قلق ، وكنت أبتغي ان
أمضي الى الجبهة قبل أن تعقد هدنة مؤقتة بدت لي محتومة . أقول
هدنة ، لأنني كنت واثقاً من أن الحرب لن تنتهي ما بقي في
فلسطين شيء اسمه اسرائيل .

وجرياً مع نزعتي الى ان أتأتى للاشياء من سبيلها الصعب ،
قنعت قبيل سفري من نيويورك بسمة مرور أجازت لي الإقامة
ثلاثة ايام ليس غير في الاراضي العراقية . ذلك بأن قنصل
العراق العام عجز عن منحي سمة عادية تجيز لي ان اقيم في العراق
ثلاثة أشهر ، بسبب من اضطارره الى ان يبرق الى بغداد للحصول
على ترخيص رسمي ، وهو عمل يستغرق مدة تراوح ما بين عشرة
ايام واسبوعين . وإذا كنت واثقاً من قدرتي على أن أشرح
للسلطات العراقية حقيقة اهدافي ببجرد وصولي الى العراق ، فقد
قبلت ، في حبور ، تلك السمة العابرة التي تسبب لي الآن أشد البلاء .
وليس معنى ذلك أن السلطات العراقية ضيقت عليّ الحناق .
لا . لقد كانت غايةً في الكياسة . فبعد اربع وعشرين ساعة
انقضت على تسليم الفندق جواز سفري الى الشرطة استدعتني دائرة
التحقيقات الجنائية العراقية . كان الصوت المتحدث على التلفون
يملك ناصية اللغة الانكليزية ، وكان يقطر لطفاً ، ولكنه يسألني
ان احضر الى الدائرة في « اول فرصة تتاح لي » .

وكانت دائرة التحقيقات الجنائية العراقية تقوم قرب القصر
العباسي على ضفاف النهر ، خلف فناء يغصّ بالجماهير والحرس .
وكان بعض الجنود العراقيين ، المرتدين سترات من الكاكي
البريطاني وبنطلونات قصيرة تنتهي الى الركبة وساقيات * ملتفة
فوق احذيتهم العالية السوداء ، يحرسون النقاط الاستراتيجية هناك .
حتى اذا سألتُ احدهم ، بالانكليزية ، أين يستطيع ان أقابل
الضابط المسؤول ، حيّاني تحية عسكرية واستدار على عقبه ، ثم غاب
عن نظري في مجاز كان قائماً خلفه . وبعد دقيقة ظهر من جديد
يصحبه موظف مدني يتكلم انكليزية عرجاء . وكررت سؤاله ،
فابتسم الموظف ابتسامة تؤذن بأنه فهمني ، وقادني نحو سلم وأوماً
إلى باب الضابط المسؤول ، ثم حيّاني وتركني أدبر امري بنفسه .
كانت غرفة الضابط ملأى بالموظفين والمكاتب واجهزة التلفون
وكانت تمور بالحياة والنشاط . اما في ما عدا ذلك فكانت جرداء
قارسة . وكانت المصابيح المتدلية من السقف ضرورية لان الغرفة
كانت ذات نافذة واحدة . ولم يُزعج دخولي احداً من القوم ، غير
الضابط الذي كان يتوقع زيارتي .

كان يرتدي ثياباً مدنية أنيقة ، وكان حاسر الرأس ، لطيفاً
كيساً . وكان ذا شارب صغير داكن وعينين سوداوين واسنان
سليمة . وكانت ابتسامته ترشح بالموودة . حتى اذا جلستُ بعد ان
فككت أزرار معطفي وأسلمت قبعتي وعصاي لاحد الحجاب
سألني ما اذا كنت أوتّر القهوة ام ذلك الضرب من الشاي العراقي

* الساقية ما يلف على الساق من قماش او غيره .

المضاف اليه قدره من القرفة والسكر والليمون الحامض . وكان هذا الاخير يحتفظ بجزارته مدة اطول ، ففضلته . وفي الوقت نفسه أوضح لي الضابط بعض الحقائق .

لقد اخطأت ، قبل كل شيء ، بقبول سمة مرور من غير ان اتخذ أي ترتيب من اجل مغادرتي العراق . ولقد كنت ، ثانياً ، امير كياً وصحافياً ، والصحافيون الاميركيون موضع ريبة في العراق منذ الاشهر الاولى من الحرب عندما زار عدد قليل منهم بغداد فمنحتهم السلطات العراقية امتيازات اساءوا استعمالها . والذي يبدو ان هؤلاء الصحفيين غادروا العراق الى تل أبيب وحيفا وكتبوا قصصاً سرّت الرقيب الصهيوني ولم تسرّ العرب بحال . وفوق هذا كله ، فقد كانت معي آلتان من آلات التصوير . وكانت المصورّات محظورة في العراق شأنها في مصر . وكان يتعين عليّ ان اصرّح بوجود الآلتين معي وانا بعدُ على ظهر الباخرة ليصار الى وضعها في عهدة الجمر ك ريثما يبت في أمرهما . ولم اكن عارفاً بذلك ، ولم ينبهني احدٌ اليه الا بعد مغادرتي السفينة . ولم يسألني احدٌ عنهما خلال مقامي في البصرة ، او اثناء رحلتي بين البصرة وبغداد . وعلى اية حال فقد كنت املك آلتين تصوير غير مسجلتين ، وكنت متهماً بتهربهما الى البلاد . وكانت الآلتان في غرفتي بالفندق ، فاقترحت ان اسلمهما الى دائرة التحقيقات الجنائية ، ولكن اقتراحي رُفض في لباقة ولطف . ونُصحت بأن لا اخرجهما من الغرفة إلا بعد ان يتبين وضعي ويتضح . ثم ان الضابط نهض من كرسيه وتمشّى لي نهراً طيباً ،

قائلاً إنه سوف يتصل بي في ما بعد .

وطوال اسابيع ثلاثة ، قمت بزيارات يومية الى مكاتب دائرة التحقيقات الجنائية ، وخضعت لأبرع والطف استنطاق عرفته في حياتي . ولقد كان خليقاً بالذين شهدوا التحقيق من رجال الجيش العراقي أن يعتقدوا أنني والضابط صديقان قديمان التقيا بعد غياب ، وانه كان يسألني عن اسرتي واحوالي . وكان ثمة دائماً قهوة او شاي . ولم تكن الجلسات لتطول اكثر من ساعة واحدة . حتى اذا انتهى ذلك التحقيق الى غايته ، في اواخر كانون الثاني ، اجتمع لدى الدائرة ملفٌ كامل عني ، عن حياتي ومؤلفاتي .

وفي الوقت نفسه أطلقت حرياتي واحدة إثر واحدة . لقد رُفع الحجز قبل كل شيء عن آلي التصوير . وُعِين لي ، من طريق علي باشا مدير الشرطة ، ضابط بغداديّ شاب من رتبة ملازم ثان ليوافقني بوصفه رقيباً ودليلاً وحامياً في آن معاً . وكان المفروض نظرياً ان يجد العراقيون حرجاً في التصوير الفوتوغرافي شأن المسلمين المستقيمين في شمالي افريقية . ولكنني وجدت ان هذا غير صحيح في العاصمة العراقية . فما اكاد اخرج الكاميرا من صندوقها حتى يحتشد السابلة بمثل السحر ، ويضطر مرافقي الى ان يقضي الجمهور المتلفح حتى يصبح في ميسوري ان التقط صورة ما . ولكن الفرصة كثيراً ما كانت تفلت من يدي . فساحة الملك فيصل ، مثلاً ، ساحة نقل تقود الى جسر فيصل الاول عبر دجلة الى بغداد الشرقية . وكانت تنتظم عدداً من وكالات السيارات التي تعلن عن بضاعتها من « فورد » ، و « ميركوري » و « كرايزلر » بلوحات ضخمة اميركية

الصنع 'علقت فوق الشارع . والى أدنى ، عند سطح الشارع ،
كانت عين الناظر تقع بين الفينة والفينة على قوافل الجمال وقطعان
الغنم مما يذكر بأن العراق لما انفصل بعد بالكلية عن ماضيهِ
الشرقي . وكنت 'احب ان التقط بضعة رسوم لأمثال هذه
المفارقات الغريبة الطريفة . ولكنني لم اوفق الى ذلك قط . فقد
كان كثير من الصغار المفترة شفاهم عن ابتسامه ، وكثير غيرهم
من الكبار الفضوليين يعوقون المشهد ويحيلونه عن روعته الى
وضع اقلّ تعبيراً واثارة للشوق .

وكان الملازم الذي يرافقني يمثل معي دور ذلك البوليس
السري الذي يكلف في بعض الاحيان بأغراء من تحوم حولهم
الريب بالقيام بعمل غير مشروع لكي يصبحوا عرضة للعقوبة .
والواقع ان غرائز السائح تبدو دائماً وكأنها تركّز نفسها على
مظاهر الحياة الاكثر وضاعة في البلد الغريب . وكان جماعات من
الاطفال العرب الصغار ، ابناء اللاجئين الفلسطينيين الذين ضرب
عليهم البؤس والفقر ، كثيراً ما يبرزون امامي بأنوف راشحة
واقدام حافية شديدة القذارة ، تحت أسمال خلقة بالية ، فيبتسم
ملازمي العسكري ويقول : « لقطه جيدة ؟ شيء طريف ؟ »
وأضطر أنا الى ان اقطّب جبيني في وجهه . وفي ما بعد ، عندما
اردت ان التقط رسم نفر من البدويات ذوات الحدود الموشومة ،
وكنّ يسقن قطعاناً من الغنم والحمر ، نهاني عن ذلك قائلاً « انهن
نسوة ليس غير ، وان الصورة الفوتوغرافية لكثيرة عليهن . »
واخيراً وفقت الى الحصول على اجازة من دائرة التحقيقات الجنائية

وبها تمت لي حرية العمل كاملة . وطوال اسبوعين اثنين كنت
الاجنبي الوحيد القادر ، في العراق ، على ان يأخذ الصورة التي
يريد . وحتى موظفو السفارة الاميركية شرعوا يرسلون اليّ
مصوراتهم لكي التقط لهم بواسطتها صوراً لمساجد العراق وغيرها
يضيفونها الى « ألبوماتهم » .

وخلال هذه المدة أطلق جواز سفري من عقالي ، فأقمت في
بغداد ، على نحوٍ شرعيّ ، ريثما أوفق الى الحصول على اجازة من
وزارة الدفاع الوطني تمكّني من الالتحاق بالقوات العراقية في
فلسطين . وهكذا زرت المدائن وبابل وصوّرت كل ما يحسن
تصويره بالأسود والابيض ، وبالالوان .

وكان عليّ ان أواجه مشكلة تظهير الأفلام الملونة . وكان
موظفو مكتب المعلومات الاميركي في بغداد قد أجازوا لي ان
استعمل غرفتهم الفوتوغرافية المظلمة وما تشتمل عليه من اسباب
العمل . ولكن حرارة الماء خلقت مأزقاً ليس من اليسير الخروج
منه . كانت المياه متجمدةً ، ونادراً ما كان ميزاني يسجل درجةً
اعلى من ٤٥ فهرنهايت . ومن هنا فسد قسم كبير من الرسوم ،
واعتبرت نفسي سعيداً حين مكّنتني مختلف الحيل التي اصطنعتها
من انقاذ ٦٠٪ من اللقطات .

وقامت وزارة الداخلية ببادرة تمّ عن بالغ الكياسة واللفظ
حين أجازت لي ان افيد من طائرتي هيليكوبتر يقودها امير كيان
شابان ، وكانتا تصطنعان لاغراض النصح الجوي في المزارع
الاختبارية بالزعفرانية ، على مبعده اثني عشر ميلاً من بغداد .

والواقع ان المواصلات عسيرة في الشتاء في ارجاء الشرق الاوسط
كله ، لأن أولى ضحايا العواصف والسيول هي الطرق عادةً ، فهي
موحلة يعسر اجتيازها . صحيح ان هذا الحكم لا ينطبق على الطرق
العريضة المعبدة ، ولكن هذه ما تزال ترفاً نادراً ، نسبياً ، في
منطقة تعتمد مواصلاتها الى حد كبير على الجمال والحمير والطرق النهرية .
وطائرات الهليكوبتر مدهشة في زيادة الصحراء بخاصة .
ولكن العيب الرئيسي في تينك الطائرتين اللتين وُضعتا في تصرفي
ان طاقتها على نقل مقدار صالح من الوقود كانت محدودة . ومن
هنا كانت رحلاتها قاصرة على الاهداف الواقعة على مبعدة ساعة
او نحوها من قاعدة انطلاقها . وأياً ما كان فقد أفدت منها في
رحلة قمت بها الى عكر قوف ، حيث التقطت مجموعة من الصور
الملونة ، الناجحة حقاً ، للخرائب التاريخية .

وعكر قوف ، الواقعة وسط المنخفض الجيولوجي العظيم الذي
يحمل اسمها ، لغز آثاري محير . فبعض الثقات يعتقدون انها أقدم
عهداً من «أرك» و«أريدو» . وبعضهم الآخر يعتقدون انها احدث
عهداً من «أور» او «بابل» . وأياً ما كان فأنت خرائب ذلك
القصر او البناء العام السامقة تؤذن بأنه شيد من آجرٍ مجففٍ
بالشمس ومن قضبان ، وبأن سطوحه قد دُعمت بجسور خشبية
كانت قد أُقيمت في الجدار الآجري الناهض تحتها . والحق ان
البناء الرئيسي الذي ما يزال قائماً بلغ ارتفاعه في وقت من الاوقات
مئة قدم او تزيد ، وكان يهيمن على المنشآت المجاورة كما هيمن
برج بابل على الابنية المحيطة به في تلك العاصمة العريقة في القدم .

وكان الطياران قد ضاقا ذرعاً بالانتظار . وكانت مهمتهما مقصورة على مجرد نضح الفسائل والنباتات ، من الجو ، حين يخشى عليها من الحشرات . وفي فصل الشتاء ، لم يكن ثمة مثل هذا الخطر ، فليس لديها من عمل غير التحليق بي فوق الصحراء . وكان كل ثمة منها قد رغب في ان يقوم بعمل من شأنه ان يخدم العرب اثناء الحرب ، ولكن الحكومة لم تسمح بذلك . وكانا ، شأني أنا ، ناقلين ، شاعرين بخيبة أمل مريرة . فكنا نفقس عن مشاعرنا الثائرة بان نصب اللعنات على محلي البيت الأبيض وأصدقائهم من الصهيونيين . لقد صعب علينا ، ههنا في الشرق الاوسط ، أن نصدق أن حكومتنا يمكن ان تجازف بمستقبل الولايات المتحدة من اجل الحصول على الرشوة التي يقدمها اليها الصهاينة : أعني أصوات اليهود الانتخابية . كان في استطاعتنا أن نفهم دناءة الصحافة الأميركية ، ولكن لم يكن في وسعنا أن نعوذرها . اما ان تتردى ادارة حكومية في حمأة الدناءة وتضحى عن سابق تصور وتصميم بمستقبل الامة الاميركية نفسها لكي تبقي احد الاحزاب السياسية في محل السلطة ، فهذا ما لم نستطع أن نفهمه أو أن نلتمس لها العذر فيه . لقد كان ذلك في نظرنا خيانة لم يقترب مثلها اميركي من قبل ، وهي لا تزال كذلك الى اليوم عندي انا شخصياً .

ولقد اكتشفت أننا لم نكن وحدنا نفكر هذا الضرب من التفكير . ففي مشرب (بار) الاوتيل الدافئ ، وبعد غداء من السمك النهري وشرائح لحم البقر ، كان الاميركيون القادمون

من حقول الزيت في شبه الجزيرة العربية لقضاء اجازاتهم في العراق،
او العائدون من ايران بطريق بغداد ، يجتمعون حول المشرب
ويتناقشون في الاحداث الجارية بفلسطين . وكانت الفالوجة على
وشك السقوط ، آنذاك . ذلك بأن مقاومة الحامية المصرية بالاسلة
كانت قد أخذت تضعف شيئاً فشيئاً بعد أن نفذت ذخيرتها الحربية
الخاصة بالاسلحة الخفيفة ، وبعد ان أنهمك الجوع قوى الرجال
المدافعين عن موقعهم المحاصر . وكان واضحاً ان مصر
سوف تجد نفسها مكرهةً في وقت قريب على أن توقع
هدنة مع اليهود . وتبين اكثر فاكثرا ان العرب قد خسروا
الحرب عندما دعيت القوات الاردنية للعودة الى قواعدها بعد
ذلك الزحف الظافر الذي قامت به نحو البحر الابيض المتوسط ،
وعندما التزم العرب احكام الهدنة في حين خرقها الصهيونيون ،
وبذلك صار لهم سلاح جوي متفوق الى حد غامر ، وجيوش
مزودة بالاسلحة الاوتوماتيكية الحديثة ، بل الممعة في الحداثة .
ومن غير ما استثناء على الاطلاق كان جميع الاميركيين
الذين لقيتهم في الشرق الاوسط ، الآن وفي ما بعد ، يستشعرون
العطف على العرب ، والحقد البالغ حداً بعيداً من المراءة ، في
كثير من الاحيان ، على الاميركيين في الوطن الذين ايدوا
الصهيونيين وناصروهم لأغراض عاطفية او مادية . ونال
كل من دين اتشيسون وفيلكس فرانكفورت نصيبه من
النقد . ولكن اللعنات التي انصبت على رأس هاري ترومان
فاقت كل ما عداها ، سواء من حيث الحجم او من حيث الصدق

والحرارة القلبية .

وكان اصحاب الفندق يراقبوننا في كثير من الذهول ،
ويراقبون كيف كانت الويسكي والجمعة والعرق تزيد لهجتنا حدةً
وعنفاً . صحيح ان انكليزياتهم لم تكن سلسلة ، ولكنهم استطاعوا
ان يدركوا فجوى الكلام ، وليست المفردات اللغوية التي يصطنعها
المشتغلون بصناعة الزيت معقدة جداً . وكان اصحاب الفندق هؤلاء
كلدانياً نصارى . والواقع ان الكثرة الكبيرة من الفنادق في العراق
يملكها ويديرها الكلدانيون الذين يحفل تاريخهم بالاضطهاد بقدر ما
يحفل تاريخ اليهود ، ولكنهم لا يتخذون من ذلك ، شأن اليهود ،
ذريعة للاعتداء على حقوق الآخرين .

ويبدو ان العراق يضم الكثرة المطلقة من الكلدانيين الذين
خلفتهم الامبرطورية البابلية ، وهو وضع لا مجال كبير للتعليق
عليه لولا ان موطن الكلدانيين الآخر هو اليوم في ديترويت
بولاية ميشيغن . والذي يظهر ان لكل كلداني في بغداد انساب
يعملون في مصانع السيارات بديترويت ، وأن كثيراً من هؤلاء
المقيمين في بغداد عملوا فترةً ما في تلك المصانع . وكان جورج ،
حلال المشكلات في فندق سندباد ، قد قدّم الى السفارة
الاميركية طلباً بالهجرة منذ أربع سنوات أو اكثر ، وكان يتوقع
أن يتلقى موافقةً على ذلك في كل لحظة . لقد تخير منزله منذ
الآن ، وهو يعرف اسم الشارع وابن يقع وخصائص الجوار ورقم
تلفون البيت . وإنه لمولع في الحديث عن هذا كله .
وحين تقدّم شباط نحو نهايته غدت الشمس اكثر دفئاً ، ولم

بعد من الضروري ان تهرع الى الموقد ، بعد طعام الصباح ، لكي تحتفظ بقدر من رشاقة الحركة . وبين السيارة والهليكوبتر وُفقتُ الى ان أطوّف في جزء كبير من العراق ، ولم استشعر الأسف إلا لعدم تمكني من الشخص الى سامرا . وكان شيخ تلك المقاطعة قد دعاني ، مرتين ، الى مرافقته الى هناك في سيارته الكبيرة الفخمة من طراز « باكارد » ، ولكن المطر حال في كل من المراتين دون ذلك لأن الطرق كانت أسوأ من أن تجوزها السيارة بعد أن تقطع الطريق العامة المعبدة . وكنتُ على مثل اليقين من أني إذا ما رأيت الشيخ بعد عودته من البرلمان - وكان عضواً فيه - ودعاني لقضاء نهاية الاسبوع التالية في ضيافته فسوف تهب عاصفة من الغبار يوم الاربعاء ليعقبها المطر يوم الخميس ، وعندئذ يقضي الشيخ نهاية اسبوعٍ كثيفة في الأوتيل أو مع الأصدقاء . وهكذا ظلّ مسجد سامرا الجامع في نجوةٍ من آلتَي المصورتين ، ولكن بسببٍ من الاحوال الجوية ليس غير .

والواقع أن هذه المصادفة شغلت بال الشيخ بعض الشيء . لقد ذكرته بتلك الاسطورة العربية القديمة التي اقتبسها ووسّعها كثير من الكتاب المحدثين ، والتي يمكن أن نجعل لها عنواناً « موعِد في سامراء » . ويحسن بي ان أخصها هنا للذين لم يسمعوها فأقول ان خادماً قصد الى السوق صباحاً فلقى عزرائيل يمشي بين الدكك التي تفرش عليها البضاعة . ولم يكد عزرائيل يرى اليه حتى رفع ذراعيه ، فخيّل الى الخادم الشاب انه يتوعده ويتهدده .

وفي ذعر ولى الخادم هارباً الى سيده ، وحدّثه بالذي رأى ، متضرعاً اليه ان يعطيه جواداً يهرب على متنه الى بيت ابيه في سامراء . ولم يرض عليه سيده بذلك ، ولكنه لم يكذب يعلّب الامر في ذهنه كرةً اخرى حتى اخذه القلق ، فمضى بنفسه الى السوق . وهناك ألفى عزرائيل يمشي مختالاً بين الخضر وآنية الخرف . فتقدم التاجر نحوه وأنبه لما سلف منه من تهديد لخدمه . فما كان من ملك الموت إلا ان تطلّع الى الرجل في دهش وقال :
« أنا لم أهدّد خادمك ، ولكني اكتفيت بأن رفعت ذراعيّ تعبيراً عن دهشتي لأن اجده هنا في بغداد ، برغم اني على موعد معه ، غداً ، في سامراء ! »

وفما كانت الاحوال الجوية آخذة في التحسن ازدادت ضيقاً بتأخر وزارة الدفاع في البتّ بأمر الترخيص لي في الالتحاق بالقوات العراقية العاملة في الجبهة . فعلى الرغم من الهدنة كان لا يزال ثمة نشاط حربيّ عند ملتقى نهري اليرموك والاردن . وهناك كانت القوات السورية المفتقرة الى السلاح قد أمدت بكتيبة عراقية في تلك المنطقة التي عُرفت بالمثلث العربي . فالى الجنوب من جبل حرمون وعلى طول الشاطئ الجنوبي الشرقي من بحيرة طبريا كانت الحرب تُشنّ في قطاع تاريخيّ ، غير بعيد عن هضاب حطين الحافلة بعظام القتلى حيث هزم صلاح الدين جيوش الصليبيين هزيمةً منكرة في الرابع من تموز سنة ١١٨٧ .

وفي تلك الاثناء قدّمت الى الزعيم (الكولونيل) عبد المطلب بك رئيس دائرة المباحث العسكرية العراقية . ولكنني قدّمت هذه

المرّة بوصفي صديقاً. وكان الزعيم عبد المطلب بك ودوداً كذلك. كان رجلاً بديناً ذا وجه عريض ذكيّ، وشعر اسود جعد، وعينين دافئتين. وكان بوصفه حسن الثقافة، واسع الاطلاع، ذا عقل حصيف وفكر متطور، واحداً من اكثر الرجال الذين لقيتهم في حياتي فتنةً واسراً، من غير شك. كان فكهاً ظريفاً. ولم يكن صموتاً، ولكن كلماته كانت تنطوي على قيمة، فأنت إن أخطأتها أخطأت كثيراً مما يرمي اليه. وكان مكتبه يقع عبر مجازات ينتثر فيها الحرس واللوحات المعلقة على الجدران والمحدرة من جاسوسية العدو، ولكنه مؤثث في بساطة فهو لا يحتوي على شيء لا حاجة اليه البتة. ولم يكد المجلس يستقر بي حتى جاءني بفنجان من القهوة العابق منها عير حب الهال، ورحنا نتذاكر الاسباب التي تحدوني على دراسة الوضع الحربي في « المثلث العربي » من وراء الخطوط العراقية. وبعد ساعة من الحديث العذب وافق على ان يبسط رغبتني هذه لمدير الدفاع الوطني ويدعمها لديه. وفي ذلك النهار نفسه اتصل بي سكرتيه ودعاني الى تناول طعام العشاء مع الزعيم وصديق له. وفي « فندق قصر دجلة » احتسينا شيئاً من الكوكتيل وأواناً من الطعام ممتازة، ثم أنفقنا بضع ساعات على الويسكي والصودا والحكايات. وفي موهنٍ من الليل سئلت عن المواطن التي قد رلي ان ازورها في العراق، فأشرت في الجواب الى شيخ سامراء والى النجس الذي بدا وكأنه يحول دون ذهابي الى هناك.

ومن تلك النقطة تقدمنا الى الكلام على الحرب السيكلوجية

أو النفسانية. وكان النقيب (الكابتن) مكي - وهو ضيف الزعيم عبد
المطلب بك - قد درس في المانية وعرف شيئاً كثيراً عن هذا
الموضوع. والحق اننا اتفقنا جميعاً على ان العرب أخفقوا إخفاقاً ذريعاً
في حقل الدعاية لقضيتهم. صحيح أنهم انشأوا في واشنطن ونيويورك
مؤسسة صغيرة تكاد تكون عديمة الجدوى عرفت بمكتب
المعلومات العربي ، ولكن هذه المؤسسة كان يعوزها المال ، وكان
القائمون عليها عرباً مجهولون القوى الجبارة التي توجه الدعاية الصهيونية
بقدر ما مجهولون العقلية الاميركية. وهكذا ما لبثت هذه المؤسسة
ان ألفت سلاحها في يأس ، وقررت ببساطة انها عاجزة عن مقارعة
اليهود في هذا الميدان .

وهنا ذكرت اني قابلت الوزير العراقي المكلف بالاشراف
على شؤون الدعاية، واكتشفت أنه لم يعمل شيئاً تقريباً في العراق ،
ولم يعمل شيئاً البتة في الخارج . وحين سألت الوزير عما فعله
للرد على الدعاية الصهيونية في أميركة بسط يديه ، ورفع عينيه ،
قائلاً :

« لا شيء على الاطلاق . لقد انضمت اميركة الى المعسكر
المعادي ، وليس من فائدة ترجى من الدعاية فيها . »
وابتسم الزعيم عبد المطلب بك والنقيب مكي لدن سماعهما
هذا الحديث ابتسامة كئيبة بعض الشيء . وللمرة الالف
رحنا نناقش موقف أميركة من الحرب الفلسطينية .
ورأيت من واجبي ان أتولى انا شرح الموقف لأن كياسة
مضيفي خليقة بأن تحمله على الاحجام عن القيام بأيام مبادرة قد

تجرح شعوري الوطني . ولم يكن ذلك أمراً يسيراً بالنسبة اليّ أنا
أيضاً . ذلك بأن المرء قد يصب اللعنات على رأس حكومته حين يكون
مع نفر من مواطنيه ، ولكنه ما إن يجتمع الى نفر من الاجانب حتى
يتورع عن التجريح السافر والطعن البليغ . وائياً ما كان ، فقد اوضحت
للضابطين العراقيين اعتقادي الشخصي بان المسألة تتلخص بكل
بساطة بان الكثرة الكبيرة من الاميركيين لم تول المسألة تفكيراً ما ،
وان قليلاً منهم يفهمون ايما جزء من الاساس التاريخي الحقيقي
لفلسطين والقضية الصهيونية فهماً صحيحاً ، وان معظم معلوماتهم
- او مغلوطاتهم - عن الموضوع مستمدة من قراءتهم ، وهم صغار ،
للتوراة او « العهد القديم » في مدرسة الاحد والكنيسة .

ومن هذه الانطباعات المبكرة تقبل معظم الاميركيين
الرواية التوراتية من غير ما نقد او تجريح . فوقع في وهمهم ان
فلسطين كانت ، تقليدياً ، يهودية ، وان القدس مدينة يهودية . بل
لقد ذهب بعضهم الى حد الاعتقاد بان اوروشليم تعني مدينة اليهود .
ومن ناحية ثانية ، فان قلة قليلة منهم كانت تعرف شيئاً عن العرب
من غير طريق الافلام السينائية او روايات اديث هول Hall .
وقليل هم الاميركيون الذين كانوا قادرين على ان يعطفوا كثيراً
على امة تصوروا انها تحيا في الصحراء وتجهل الحياة الحضرية جهلاً
تاماً . وهنا اضفتُ قائلاً إنه لو عرف الاميركيون ان الكثرة
العظمى من العرب تنزل المدن ، بل لو عرفوا ان العرب هم الذين
انشأوا الحياة الحضرية في العالم ، اذن لاستولى عليهم الدهش .
وعلى اية حال فان الاساس الصحيح لهذه اللامبالاة التي يبديها

الامير كيون نحو العدوان الصهيوني إنما يتمثل في ما علق بأذهانهم ،
منذ عهد الصبا الأول ، من روايات التوراة وما تنطوي عليه
من دعاية للعبيرانيين .

ووجد الضابطان العراقيان ان عرضي للمسألة يتفق مع آرائهما
فيها . وأشار عبد المطلب بك الى ان الانطباعات ، حتى الاجنبية
منها ، لا تقاوم في سهولة ويسر .

ثم إنه ضحك وقال :

« انها تشبه الى حدٍّ ما حاجي بابا وما كينته الذهبية . »

فسأله :

« تعني حاجي بابا الاصفهاني ؟ »

فقال عبد المطلب بك :

« أجل . ولكن الجزء الثاني من الكتاب : « حاجي بابا في

لندن » . هل قرأته ؟ »

فسلّمتُ بجَهلي له .

فقال عبد المطلب بك :

« ينبغي ان تفعل . فعندما رافق حاجي بابا احد السفراء الى

لندن فرغت جيب الرجل الحثيث المخادع من المال ، وعمل ما كينة

يفترض فيها أن لا تصنع شيئاً غير الليرات الذهبية . وبعد فترة

قصيرة وجد رجلاً غنياً شرهاً أبدي رغبته في شراء الآلة . ولكنه

أصرّ على تجربتها أولاً .

« حسناً ، وكان حاجي بابا قد استعار ليرتين ذهبيتين من

محفظة سيده ووضعها خلسةً في الماكينة . وبعد شيء من الشعوذة

والمهارة اليدوية جعل الماكينة تقيء ليرتدين ذهبيتين ، فأعجب
المثري الطماع اعظم الاعجاب بهذه الآلة العجيبة ، وسارع الى دفع
الخمسة الآلاف جنيه التي طلبها حاجي بابا ثمناً لها ، واستعد للمضي
الى منزله .

« وهنا ما كان من حاجي بابا إلا ان انتحى به زاوية
وقال له في كثير من الصدق والاخلاص : « هناك شيء
واحد لم اقله لك بعد ، وهو على جانب عظيم من الأهمية .
فاحفظ ما سأقوله لك الآن جيداً . عليك كلما حاولت
ان تصنع الذهب بواسطة الماكينة ان لا تسمح لعقلك ان يتصور ،
مهما تكن الظروف ، حمراً ابيض متدلي الاذنين . لأنك اذا
تصورت ذلك مرة فسدت المحاولة وخربت الماكينة ! »

فقال النقيب مكي بالالمانية :

« هذه دعاية بارعة ! »

وأقررتة انا وعبد المطلب بك قائلين :

« أجل ، انها دعاية بارعة حقاً ! »

وفي صباح اليوم التالي طرق صبيّ الغرفة الباب ، واعلمني ان
سيدة جميلة ترغب في التحدث اليّ ، وانها الآن في ردهة الانتظار .
وعلى الرغم من انني اعتقدت بادىء الرأي ان في الامر خطأ ما ،
فقد نهضت عن كرسيّ - وكنت اكتب رسالة - وعقدت
ربطة عنقي ، ولبست سترتي ، ثم هبطت السلم الى ردهة الانتظار .
كانت « أقدس » عضواً في احدى الجمعيات النسائية العراقية ،
وكانت تعمل في حقل الصحافة . لقد اطّرحت « اليشمك » او

الحجاب ، والعباءة الرتيبة السوداء ، وارتدت زياً غربياً يذكّر
المرء بالشارع الخامس في نيويورك ، والشانزيليزيه في باريس . ولم
تكن لتعدو الخامسة والعشرين من العمر ، ولولا بعض الظلام
الذي اخذ يظهر في عدسة عينها البلورية اليسرى إذن لكانت فتاة
بارعة الجمال الى حد متطرف .

وكانت « اقدس » قد تسامعت برغبتي في زيارة الجبهة من
احد معاوين الزعيم عبد المطلب بك ، فهي تحب ان تأخذ مني
حديثاً . وعلى أية حال ، فلست ادري على وجه التحقيق أين وجه
الى الآخر عدداً اكبر من الاسئلة . واذكر اني سألتها عن وضع
المرأة في العراق . وكان ذلك شيئاً تتوقعه « اقدس » . فما ان
سمعت سؤالاً الى هذا حتى أغرقتني بفيض من المعلومات والاحصاءات .
ولقد عرفت منها أن النساء في العراق انما يلبسن اليشمك (الحجاب
الذي يغطي النصف الادنى من الوجه) لأنهن يؤثرنه ، لا بسبب
من رغبة ازواجهن فيه . وأنه ليس ثمة اضطهاد او كبت تحررية
النساء في أيما مكان في العالم العربي ، وأن الفتاة العراقية تقبل على
التعليم الجامعي في لهفة حتى ليبلغ عدد الطالبات في الجامعة ثلث
عدد المسجلين فيها من نساء ورجال .

وفوق ذلك حدثتني اقدس عن الصحافة في بغداد . كان ثمة
عدة من الصحف وصحيفة واحدة تصدر باللغة الانكليزية ، ولكن
رجال الصحافة نادراً ما يستطيعون الاجتماع بكامل هيئتهم لأن
واحداً منهم على الأقل يكون نزيل السجن ، بسبب من مقال
كتبه في نقد اعضاء الحكومة ، مثل نوري السعيد باشا ، رجل

السياسة العراقية العجوز الداهية ، أو اياما رجل آخر يؤيده ذلك الداهية . وقد جرت العادة بأن لا يطول مقام الصحفيين في السجن ، وأن يُمنحوا الحرية في الحال ، بعد ان يقضوا فترة قانونية ما ، وبعد ان يعبروا عن استعدادهم للاعتذار .

وكانت الصحيفة البغدادية الوحيدة الصادرة بالانكليزية ، واسمها « البريد » Post ، نادراً ما تنشر أي شيء يؤذي أحداً ، ومن هنا لم تزر غير قلة قليلة من محرريها ونخبها السجن العراقي الا في مهام صحفية ، طبعاً .

وقالت أقدم في شيء من الزهو :

« إن رئيس تحرير الصحيفة التي اعمل فيها نزيل السجن منذ

شهر او يزيد . »

وفي اليوم التالي دُعيت الى العرض العسكري الذي قامت به القوات العراقية في سهل رملي يقع على مبعدة ثلاثة اميال ، تقريباً ، من بغداد . ولقد شهد العرض الوصي على العرش ، الأمير عبد الله ، خال فيصل الثاني ملك العراق الشاب . ولم يكن الملك فيصل قد بلغ آنذاك الخامسة عشرة من عمره ، وكان يتلقى العلم في كلية « هارو » البريطانية ، وكانت امه الملكة عالية مقيمة في لندن لكي تكون على مقربة منه . اما ابوه ، الملك غازي الاول ، فكان قد قضى نفيه عندما انقلبت به ، منذ بضع سنوات ، سيارة من سيارات السباق كان يسوقها في سرعة بالغة .

وتلقى الامير عبد الله علومه في كلية فيكتوريا بالاسكندرية حيث اكتسب شيئاً من « الرسمية القاسية » التي يتكفها البريطانيون

في خارج بلادهم ، ومن هنا تجسده لا يشارك ملوك شبه الجزيرة العربية وشيوخها في مسالكهم الديموقراطية الصارخة ، مع الرعاية . ولقد اضطرّ هو وحكومته الى ان يغادر بغداد الى القدس عندما ثار رشيد عالي الكيلاني ثورته المعروفة . ولكنه ما لبث ان رجع الى العاصمة العراقية ، بعد اخفاق تلك الثورة .

وتفصيل ذلك أن جزءاً كبيراً من الشعب ، وبخاصة الجيش ، كان ناقماً آنذاك على ما كان البريطانيون يتمتعون به من نفوذ في العراق . فقد نصت معاهدة عام ١٩٣٢ التي انتهت عهد الانتداب ، على ان يضع العراق طريقه ومطاراته ووسائل مواصلاته كلها تحت تصرف بريطانية زمن الحرب ، وعلى ان يحتل البريطانيون مطاري الحبانية والبصرة وغيرهما ، وأن تعين بريطانية ضباط « ارتباط » في العراق ، كانوا يؤلفون في الواقع بعثة عسكرية تتمتع بقدر كبير من السلطة في وزارة الدفاع .

ووقع انقلاب رشيد عالي ربيع عام ١٩٤١ . وفي الحال طوّقت القوات العراقية مطار الحبانية وأعلنت حالة الحرب بين العراق وبريطانية . واستشعر البريطانيون خطورة الموقف .

وكانت حامية فلسطين البريطانية منشورة آنذاك في شمالي افريقية والشرق الاوسط . وكانت سورية خاضعة للسيطرة الالمانية وقوات فيشي الفرنسية ، وها هو ذا العراق ينتقل الى المعسكر المعادي . واذن فلم يبق في صف الحلفاء غير شرقي الاردن وفلسطين .

وبرغم هذا استطاعت الفرقة العربية الاردنية ، بقيادة

المالجيور جنرال جون باغوت غلوب - وهو ايرلندي كورنوال* ذو دعاية مرحة ومعرفسة مدهشة باحوال العرب - ان تشغل القوات العراقية ريثما تصل الفرقة البريطانية التي قادها الجنرال كينغستون والتي قضت على الحركة . وما هي الا فترة حتى رجع الوصي وحكومته الى بغداد ، وغادر رشيد عالي الكيلاني البلاد ليلجأ آخر الامر الى المملكة العربية السعودية لقد حارب العربي اخاه العربي فلم يجدا في القتال متعة او لذة . وبعد ثماني سنوات انقضت على تلك الاحداث ، لا يزال الضباط العراقيون شديدي النعمة على البريطانيين ، ولكن ليس ثمة ما يدل على انهم سوف يقومون بثورة جديدة .

وبين الجيوش الصغيرة ، يُعتبر الجيش العراقي واحداً من جيوش الطليعة . وهو مزود بالاسلحة البريطانية ، وبالمصفحات والطائرات البريطانية . ولكن ما يملكه من الصنفين الآخرين قليل . ومن هنا لا يزال العراق يعتمد الى حد بعيد على سلاح الفرسان الذي يتمتع بدرجة فائقة للعادة وبمعدات كاملة . والواقع ان ميل العرب الطبيعي الى الفروسية انضاف ههنا الى التدريب النظامي الذي تتيحه مدرسة الفرسان الممتازة لطلابها ، فكان لنا من ذلك الفارس العراقي الحديث . وليس من ريب في ان الفرسان العراقيين خليقون بأن يرفعوا رأس بلادهم عالياً في اعمال الكشف وشن الغارات .

* نسبة الى مقاطعة كورنوال Cornwall في الجنوب الغربي من انكلترة .
[العرب]

وقبل ان اصل الى المكان الذي جرى فيه العرض العسكري - وقد وصلت قبل الوصي على العرش واعضاء حكومته بفترة غير يسيرة - كان العمال قد اقاموا مجموعة من السراقات الفخمة ذات الالوان النابضة بالحياة . وكان اوسعها وابرعها زخرفاً يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً ، وعمقه اربعين قدماً ، وكانت له واجهة مفتوحة يقيها رفر ف او مظلة عرضها خمسة وثلاثون قدماً . وفي داخل السرادق مدت السجاجيد الشرقية الفاخرة ذات النقوش الملكية والثلثين الملكي ايضاً ، ووضع صف من الكراسي الجلدية الوثيرة المنجدة ليجلس عليها سمو الوصي والوزراء ، وخلف ذلك الصف وضعت كراسي اخرى هي دون الاولى فخامة ولكنها وثيرة مريحة ليجلس عليها النظارة من المرتبة الثانية . وأقبل النذل بالشاي الساخن وبالقهوة . وكانت منضدة صغيرة قد وضعت امام كرسي الوصي ، وعليها عدد من علب السجائر الانكليزية والاميركية .

وطوال عدة ساعات ، كنت خلالها اذرع المكان جيئة وذهوباً ملتقطاً شريطاً سينمائياً للاستعراض ، مرت قطعات الجيش المدرعة امام سرادق الامير تتبعها فرق المشاة التي كانت تفصل حيناً بعد حين ما بين السيارات المدرعة ، والدبابات الصغيرة وسيارات الجيب . كذلك مرت امام السرادق عدة بطاريات ممتازة من المدافع المضادة للطائرات والاسلحة المضادة للدبابات . وعلى الجملة ، فقد استغرق العرض العسكري ما يزيد على ثلاث ساعات . وكان كل امرئ سعيداً به . حتى انا كنت به

سعيداً ، برغم العواصف التي كانت تصفع وجهي بالرمل وبرغم التعب الذي استبدّ بي اثناء كرّتي وفرّتي اقتناصاً للصور السينمائية . وكنت قد دعيت ، قبل ذلك ببضعة ايام ، لزيارة كلية الشرطة قرب بغداد . فقد سبق لي أن هنأت ، صادقاً ، مدير الشرطة علي باشا على الروح الممتازة التي يتحلّى بها الشرطي العراقي . فكافأني على هذا الثناء بأن دعاني الى زيارة كلية الشرطة التي يشرف على ادارتها رجل ينتمي الى واحدة من ابرز الاسر العراقية ، هي اسرة الراوي .

ولعل قوة البوليس العراقية هي في طبيعة قوى البوليس في العالم ايضاً . فرجالها يختارون على أساس من الذكاء والسلامة الجسدية والخلقية في وقت معاً ، ثم يخضعون لاقسى التدريب على ايدي خبراء في مختلف اشكال العمل البوليسي ، ابتداءً من تنظيم السير ، الى التمرينات الخاصة بالصراع الياباني المعروف بـ «الجودو» وباستعمال الاسلحة الصغيرة ، الى إنقاذ ضحايا الحرائق وأصول الأسعاف الاولى . والواقع أن كل فرد من افراد الشرطة العراقية يتكلم ، عادةً ، لغتين أو أكثر ويلقّن ان مهمته هي حفظ النظام ومساعدة المواطن والاجنبي في كفاءة وكياسة . ولقد وجدت الشرطي العراقي ودوداً ، مسعفاً ، وكيساً في مختلف الظروف والأحوال . وفي استطاعتك ان تقدر مدى كفاءة الشرطة العراقية اذا علمت أن الجرائم قليلة جداً في بغداد ، وان المواطن والاجنبي يستشعران الأمن والسلامة في شوارع بغداد بعد ان يهبط الليل . وعلى اية حال فالشرطي العراقي ، بقبعته الضخمة الواقية من الشمس

الشبيهة بالخذ المغولية ، يبدو مخيفاً لأول وهلة ، ولكن شيئاً من الاتصال به ما يلبث ان يصحح هذه الانطباعه ويغيرها .

وأخيراً أجازت لي وزارة الدفاع ان التحق بالقوات العراقية العاملة في الجبهة الفلسطينية . ففياً كنت أشهد استعراض الجيش العراقي اشعرتني وزارة الدفاع بذلك . وكان عليّ ان اكون عند مدخل الوزارة في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي لالتحق بالقافلة العسكرية القاصدة الى فلسطين . وفي تلك الليلة ، شخصت الى مشرب اوتيل سندباد ، واشتريت ثلاث زجاجات من الجعة ، ثمن كل منها أربع مئة فلس . إن الغلاء لم يهملني هذه المرة ، فقد كنت ذاهباً الى الحرب !

٧ . حديث مع غلوب باشا

قضيتُ عشيّةَ السفر من بغداد وأنا أعدّ أمتعتي وأحرّر الرسائل الى الولايات المتحدة . وإذ كنتُ لا أعرف على وجه التحقيق المواطن التي سيُجاز لي زيارتها ولا المواقيت التي سأزورها فيها فقد اخترتُ فندق فيلاديلفيا في عمان قاعدةً لي وعنواناً .

وينبغي ان نلاحظ ان فندق فيلاديلفيا هذا لم يسمَّ على اسم المدينة الاميركية ، ولكن على اللقب القديم لمدينة عمان . ففي عصر السلوقيين الذين خلفوا الاسكندر حكم بطليموس فيلاديلفوس هذه الديار ، وصارت عمان تعرف بفيلاديلفيا . اما في الاصل فكانت عمان تدعى « ربة عمون » ، وذلك عندما سكنها المؤابيون أول ما سكنوها حوالي عام ١٣٠٠ ق.م .

وفي الميقات المحدّد وصلتُ وحقائبي الكثيرة الى ساحة وزارة الدفاع حيث التقيت صديقيّ العقيد مكي والزعيم عبد المطلب بك . ولم يكادا يلقيان نظرةً على حقائبي حتى هالتهما كثرتها ، ولكنها اخفيا ذعرهما ولم يقولوا شيئاً .

ثم ان العقيد مكي مضى ، تاركاً اياي مع الزعيم عبد المطلب و« أقدم » الفتاة الصحفية التي شقت طريقها عبر القافلة العسكرية

الى ساحة الوزارة وكانت اقدس ، في ما يبدو ، رغبة في ان
تمضي الى الجبهة ايضاً لتزود صحيفتها بأخبارها ، ولكنها لم تلق
تشجيعاً من الزعيم .

وبعد قليل رجع العقيد مكّي في سيارة شيفروليه جديدة من
نوع « ستايشن واغون » وألح عليّ في الدخول . وترجّل
السائق ، وهو عربيّ اشقر مكشّر عن اسنانه ، فحمل حقائبى
واخذ يكدها جميعاً ، حتى آلتى التصوير ، على الرف . فما كان
منى الا ان انقذت هاتين الآلتين في حين بقيت الآلة الكاتبة في
موضعها مع سائر الامتعة . ومن ذلك الحين لم تعد تلك الآلة ما
كانت من قبل . وتبعني العقيد مكّي ، وهو رجلٌ رقيق
قوي البنية بالغ النشاط ، فجلس الى جانبي في المقعد الخلفي . اما
في المقعد الامامي فجلس السائق وضابط من سلاح المشاة برتبة
نقيب . وكان هذا الضابط لا يتكلم غير العربية وبضع عبارات
انكليزية ، وكان ينفق معظم الوقت ، خلال رحلة الخمسة ميل ،
وعيناه محدّقتان الى الطريق .

واخيراً ، وبعد ساعة انقضت على وصولي الى الوزارة ، نهأت
القافلة للمسير . فهرع الزعيم عبد المطلب بك ، وسط الحشود ،
وصافحني متمنياً لي رحلة طيبة وصيداً سميناً . ولوّحت لي اقدس
وهي في ثياب الترحّل الانيقة وقد بللت الدموع خديها ، مودعةً
إيائي في حرارة . ودوّت الصافرات ، وهدرت الموتورات ،
وصدحت الابواق وسط مجموعة متشابكة من الايعازات
العسكرية ، وانطلقت بنا القافلة . والى الامام ، كان في

ميسوري ان ارى خطأ افغوانياً طويلاً من السيارات الخاكية
ينعطف ، مجتازاً الحرس الرافعين ايديهم بالتحية العسكرية ، نحو
الطريق المؤدية الى الجنوب . و خلفنا كان خطّ من ناقلات الجند ،
وكانوا مبتسمين هاتفين يلوحون بأيديهم في حماسة بالغة . وكان
بعضهم قد وضع فوق آذانه وروداً او ازهاراً اخرى . وكان
الموكب بهيجاً مرحاً .

ولسوء طالع الجند كانت الطريق الى الجنوب غير آهلة بالسكان ،
نسبياً . ومن هنا لم يلوح لنا ، فيما انطلقت بنا السيارات بسرعة
اربعين ميلاً في الساعة ، غير نفر من الاطفال الصغار وسائقي الجمير .
وعبرنا الفرات ، جنوبي الرمادي ، واجتزنا مطار الحبانية البريطاني ،
ثم انطلقنا عبر الصحراء الى الرطبة حيث قال العقيد مكّي اننا
سنبيت تلك الليلة .

وكان الجنود الذين تقلّتهم القافلة العسكرية قاصدين الى الخطوط
العراقية ليحلوا محلّ بعض الكتائب التي انقضت عدة اشهر على عملها في
الجبهة او ليعزّزوا بعضها الآخر في المواطن التي اشتدّ فيها الضغط
الصهيوني . وكانت معظم السيارات شاحنات كبيرة ، ولم يكن
ايّ منها مسلحاً . وحين سألت العقيد مكّي عن ذلك هز كتفيه
وقال انه لا يرى ما يوجب التزام حالة الاستعداد ما دامت القافلة
لا تزال في الاراضي العراقية . حتى اذا بلغنا شرقي الاردن وفلسطين
وعلمنا ان العدو يقوم بنشاط جوي فعندئذ نسارع الى وضع
المدفعية المضادة للطائرات على قدم الاستعداد . ولكن العقيد كان
يتوقع ان تكون الرحلة آمنة مطمئنة .

وكنّا قد اجتزنا الفرات حوالى الظهر ، وغدت الرحلة عبر الصحراء رتيبة مملة . وكانت الصحراء موحشة كثيرة الغبار لا تقع العين فيها ، وفي احوال نادرة ، الا على قرية بعد قرية قائمة قرب ينبوع او واحة . وكانت الشمس حارة والنهار بالغ الجفاف ، وكانت ريح باردة تهب من الشمال فتعيب باوراق النبات وبالعبار وتديرها في سرعة بالغة فوق شريط الطريق الاسود . وكان ثمة خوف من ان تهب علينا ، عما قليل ، عاصفة رملية ، ولكن ذلك الخوف ما لبث ان تلاشى بعد ان تقضت ساعات الاصيل وثيدة مثقلة الخطى . وكنت قد عرفت العواصف الرملية في بغداد ، وشاركت جمهور الناس في كرهها . لقد كانت ، في العادة ، مقدمات تمهد ليوم او يومين من ايام المطر ، ولكنها كانت في ذات نفسها كجلبة لا شد الانزعاج . انها تنطلق سحبا كبيرة داكنة من الصحراء ، فتستغرق بغداد وكأنها بطانية ضخمة ذات مسام ، تنفذ الى كل شيء .

و كنت اسارع الى آلي التصوير ، عند اول انذار باقتراب العاصفة الرملية ، فألفتها بالبطانيات لفاً محكماً ثم اضعها في حقيبة خشبية صنعها لي نجار «السيلفرستار» ، واحيط هذه الحقيبة بأوراق الصحف وما اليها خوف الهباء الذي يوشك ان يغشى سماء بغداد ، ويبعث في ارجائها رائحة تخيل للناس وكأن مكنسة هائلة من مكائس السجاد قد افرغت احمالها فوق رؤوسهم . ليس هذا فحسب ، بل ان العاصفة الرملية من شأنها ، بعد ان يعقبها المطر ، ان تجعل الطرق زلقة شديدة الخطر ، وارصفة الشوارع غير صالحة

للسير حتى يعاودها المطر فينظفها من جديد .
ولكن أسوأ ما في العاصفة الرملية رائحتها . واذكر ان بعض
العواصف الرملية كانت تسد منافذ الافق حتى ليتعذر علي ان
أنتيّن نهر دجلة ، وليس يفصله عن نافذتي غير عشرين
من الياردات . اما رائحة الغبار فكانت تنفذ الى الهواء
والطعام بل الى الجعة ايضاً حتى ليستشعر المرء ان النظافة
تعوزه . ولم يكن في تذكّر المرء أن العواصف الرملية
كانت النتيجة الأخيرة لتدمير المغول نظام الري وبذلك خربت
الصحراء المتجاوزة حدودها موارد الغذاء في البلاد بل أثقلت المناخ
ايضاً - اقول لم يكن في تذكّر ذلك ما يخفف كثيراً من وطأة
البلاء . وعندي أنه لو قدّر للقنوات والسدود القديمة ان تنشأ
من جديد اذن لتطور مناخ بغداد وغدا اكثر اعتدالاً ، واذن
لكان من الجائز أن تحتفي العواصف الرملية ايضاً .

وفي الطريق الى الرطبة تضاءلت امكانية هبوب العاصفة ،
ولكن قوة الريح بدت وكأنها تتعاضل فيما اخذت الطريق ترتفع
ارتفاعاً تدريجياً بطيئاً . ذلك بأن بادية الشام تنهض فوق سطح
البحر ، وحين تؤذن الشمس بالمغيب مصحوبةً بريح هابّةٍ من
الشمال تهبط الحرارة هبوطاً كبيراً . حتى اذا اقتربنا من الرطبة
لاحظت أن الاشجار المشتتة ههنا وهناك كانت منحنيةً نحو
الجنوب تحت ضغطٍ من ريح الشمال ما ينقطع . وكانت المنازل
دانية السقوف ، منفتحةً على الناحية الجنوبية ، وكانت الأنوار لا
تبدو إلا من وراء نوافذها وأبوابها الموصدة . ولم تعد الكلاب

والدجاج تعدو في محاذاة الطريق المعبدة ، مؤثرةً ان تظل قريةً
من بيوت السكان الاكثر دفئاً .

وقلعة الرطبة ، التي عاقت تقدم القوات الاردنية عدة ايام اثناء
ثورة رشيد عالي ، محوطة بمجموعة من الثكنات . وواصلت القافلة
سبيلها فيما انعطفنا نحن حول الطريق واجتونا بسلسلة من مراكز
الضباط قائمة قرب حديقة صغيرة ولكنها موحشة . وكانت
الرياح عنيفة قاسية حاملةً ذرات قارسة من الرمل . ولقد
رحبت بنصيحة العقيد مكي حين أوعز اليّ بأن اجتنب التعرض
للرياح فيما كان السائق يخرج حقائب من السيارة . وكان
النقيب الذي يراقبنا قد اختفى في الحال ، ليعود بعد دقائق قليلة
فيصحبني الى حيث اقابل قائد الموقع ورجاله . وكانوا جميعاً لطفاء
جداً . وكانوا مجموعة من المقاتلين الاشداء الذين ضربتهم الصحراء ،
وكانوا يتكلمون قليلاً من الانكليزية او الفرنسية او الالمانية
يردفون به عربيتهم ، وكان العقيد مكي يتوهم لي كلامهم الى لغته
الالمانية التي كان يعسر عليّ فهمها في بعض الاحيان بقدر ما يتعذر
عليّ فهم لسانه الوطني .

ولكنهم رحبوا بي ، وافردوا لي وللعقيد مكي مبيتاً في
غرفةٍ مربعة مطلية بالكلس يبلغ طولها نحواً من عشرين قدماً
وعرضها نحواً من خمسة عشر . وكانت لتلك الغرفة نافذة شمالية
زودت بوقاء من الرياح تعوزها الفعالية فكان الغبار ينفذ من خلاله
بين الفينة والفينة فيما تعبت العاصفة بزجاج النافذة .
وكان في الغرفة سريران عاريان ، فلا فرش ولا بطانيات ،

ولكن مجرد غطاءين ليس غير . ولم اكدر اري الى ذلك حتى
ايقنت انه كان يتعين عليّ ان احمل ، الى جانب آليتي التصوير
والآلة الكاتبة ، فراشاً يستريح جنبي اليه ! ولكن الضابط الذي
رافقنا في هذه الرحلة ما لبث ان برز حاملاً بعض البسط النظيفة
ونشرها فوق السرير العاري . وبعد لحظة اقبلت البطانيات
(ولعلها انتزعت من فرش الضباط العراقيين المرتجفي الاوصال) ،
ووقفت في وسط الغرفة وانا اتنفس انفاساً منظورة وأحدق الى
الميزان لاري ابن استقرّ الزئبق فيه . وفي الخارج ، كان البرد
قارساً ، والظلام دامساً ، وكانت الرياح تعوي حول زوايا الابنية .
وكان ازعج شيء لديّ ان افكر في ضرورة الخروج من
ملابسي الدافئة لاحشر نفسي في ذلك السرير الذي يذكر المرء
بالقطب الشمالي .

وفي هذه اللحظة اقبل الجيش العراقي لنجدتي . فاذا بباب غرفتي
بعض الجنود يحملون كوانين فولاذية ضخمة ذات قوائم يبلغ
ارتفاعها نحواً من ثمانية عشر إنشاً ، مثقلة بركام من اغصان
الصفصاف . ثم انهم اضرموا النار فيها ووقفوا حولها ، مستشعرين
شيئاً من الحسد ، باسطين ايديهم الى الدفء الذي بدا وكأنما يهدر
في هواء الصحراء هدرأً . وسألت العقيد مكي - وكان ينزع ثيابه
في لامبالاة اسبارطية بالبرد القارس - لماذا لا يوعز الى الجنود
بأن يحملوا الينا بحمرة او بحمرتين ، فقال ان ذلك بعينه هو ما
يفعلون . وحين سألته لماذا لا يحملون النار الى داخل الغرفة قبل
ان تحمد قال :

« لانهم لو فعلوا إذن لُقتلَ بالغاز الحائق في خمس عشرة دقيقة . »
والتمست جواباً بالالمانية ، ولكنني لم اوفق . وفي الوقت
نفسه كانت حزم الصفصاف قد استعالت الى مهادٍ وضاء من الفهم .
وهنا ادخل الجنود النار الى الغرفة ، بعد ان جُرِّدت من قدرتها على
الايداء ، ووضعوها على الارض . وما هي الا فترة يسيرة
حتى انتشرت الحرارة في الغرفة وعمها الدفء . فما كان مني الا ان
نزعت ملابسي في سرعة قليلة الاحتشام واستسلمت للرقاد بعد
دقائق قليلة .

وتشقق الفجر بصرامة منجمدة كصرامة جبلٍ من الجليد
متبلور . كان انفي الذي تشوّف الى الهواء الطلق بحكم جوعه الرهيب
اليه يخزني من البود ، وكانت انفاسي تتدلى مثل سحابة تنشر الظلمة
على الغرفة فلا اكاد ارى منها غير جمرة استنفدت نفسها ،
وتراكم رمادها اسود مقررراً فوق مهاده الفولاذي البارد .
وتطالعت عبر الغرفة التماساً للعقيد مكي ، ولكن سريره كان خالياً .
والواقع ان العقيد لم يكن قد استيقظ من رقاده فحسب ، بل
كان فراشه محزوماً ايضاً . وفي قنوط مرير أقصيت البطانيات
الدافئة ولبست بنطلوني وجوربي وحذائي . وكان في الغرفة مغسلة
فرنسية نموذجية : حوض من نحاس فوق قاعدة ثلاثية القوائم ،
وعاء للصابون واذرعٌ للمناشف . ولكنها لم تكن تحتوي على
اكثر من غشاوة رقيقة من الجليد . ورفعت صوتي منادياً ولكن
ايّاً من الجند لم يلبّ النداء . وكنت قد لبست ، الآن ، قميصاً ،
وطوقت حنجرتي بربطة عنق غير مناسبة ، وارتديت كنزتين من

الصوف وسترةً جلدية . وكانت ملابسي باردة . وكذلك كانت
يدياى وقدماي . ولم اكن قد غسلت وجهي ، او حلقت ذقني .
ولم ابالِ بذلك ، ولكنّ في لم يكن قد غُسل ايضاً ، وهذا ما
ازعجني أكثر الازعاج .

و كنت على اهبة ان اطلق صيحةً هادرةً حين وفد احد
الجنود ، وقدم اليّ فنجاناً من القهوة . إنه لا يشبه تلك «الكشائبين»
التي يقدمونها اليك في المملكة العربية السعودية وليس في قعرها غير
مقدار ملعقة صغيرة من قهوة معطرة ، ولا فناجين القهوة التركية
الصغيرة المملأى بطين البن المسحوق المحلّى ، الشائعة في معظم بلدان
الشرق الاوسط . ولكنه فنجان انكليزي كامل من فناجين طعام
الصباح ينبعث من جنباته الدخان ، فهو احلى من الأثم واشد
حلقةً من الليلة التي فاتت ! وجرعته جرعاً ، محرقاً شفتي ولساني
ومزياً عدة إنشات مربعة من انسجة الجلد عن حنجرتي ، ولكنه
كان اهلاً لذلك .

وفي الوقت نفسه ، كان الجندي قد ملأ الحوض النحاسي بالماء
الحار ، ووضع قطعة من الصابون ومنشفة وموسى حلاقة استعيرت
في ما يظهر من احد الضباط او الجنود . والواقع ان حقيبتى العسكرية
كانت تنطوي على موسى وشيء من الصابون ومنشفة ، و كنت
على وشك ان اقدر امكانيات مضيقي المحدودة فأحجم عن اصطناع
ما قدموه الي ، ولكني تمثلت نفسي وانا اعيد منشفتي المنجمدة
الى الحقيبة العسكرية ، فتعاطمني الأمر ، واطرحت الفكرة .
حتى اذا خرجت من « مستودع الثلج » نظيف الوجه ، حليق

اللحية ، 'مفرشي الاسنان ، كان الفطور قد أُعدّ . فقادي الجندي الى مقر الضابط حيث كانت نارٌ رائعة ، نارٌ نبيلة حقاً ، تتأجج في المستوقد ، وحيث اقيمت موائد طويلة لشراب الصباح . وكانوا قد افردوا لي مكاناً قرب القائد ، ووضع امامي طبق يحتوي على شرائح من لحم الضأن ، وجبن ابيض ، وزيتون ناضج ، ونصف خسة . وكان يقوم الى جانب الطبق رغيف عربي اسمر القشرة مستدير يبلغ قطره نحواً من عشرة إنشات ، وكان ما يزال ساخناً وكأنما خرج من الفرن اللحظة . واذهلني الطعام بعض الشيء ، اول الامر . ثم استغرقت في التهامه . وتصيب من جبيني قليل من العرق ، فنزعت ستري الجلدية . واتي العقيد مكي على طبقه ، وتحدث الى قائد الموقع حديثاً قصيراً . ثم قدمنا احترامنا الى الضابط وخرجنا التماساً للدفع تحت أشعة الشمس . فلم يكن الجو هناك قارساً شأنه في الداخل .

والطريق القائمة غربي الرطبة تقود الى الحدود الاردنية ، على مبعده سبعة اميال تقريباً ، ثم تتصل بمحطة انابيب حيفا رقم ٣ . وكان خط الانابيب ، الذي بُني خلال الايام المبكرة من الحرب العالمية الثانية ، ينقل الزيت الخام من احواض الخزن ، في كركوك ، الى حيفا ، عبر مسافة مترامية تبلغ نحواً من ستمئة وستين ميلاً . ولكن العراق أغلق الصمامات في محطة الضخ ، في نوار ١٩٤٨ ، فانقطع تدفق الزيت على حيفا . وثمة خط آخر ينقل الزيت من كركوك الى طراباس ، عبر مسافة مماثلة تقريباً . ويفكر المسؤولون في ان يعوضوا

على الحزاة العراقية ما اصابها من خسارة ، إثر اغلاق الصمامات ،
بان يضاعفوا مقدار النفط المنقول بواسطة خط انابيب طرابلس .
وأيا ما كان فقد اقسام العرب ليحر من الاسرائيليين من نفط
الشرق الاوسط وبذلك يشلون مصانع التكرير في حيفا ، التي
يملكها البريطانيون ويسيطر عليها الاسرائيليون * .

وانما تقوم محطات الضخ التي تساعد على دفع الزيت الى
مستودعاته الساحلية على طول خط الأنابيب ، ويفصل الواحدة
منها عن الاخرى سبعون ميلاً تقريباً . والحق ان تلك المحطات
قرى صغيرة تضم مهندسي النفط ومساعدتهم وأسرههم . وفي المحطة
الثالثة ، H-3 قرب الرطبة مطار كثيراً ما كان يجتمع فيه الملك عبد الله
عاهل شرقي الاردن الى ابن أخيه الامير عبد الله الوصي على عرش
العراق . وتذهب الاخبار الى ان عدة مناقشات حامية جرت
هناك بين النسييين الملكيين . وعلى الرغم من ان بغداد وعمان
ظلتا تشكلان معاً جبهة مشتركة ، الا ان آثار التصدع في تلك
الجبهة كانت بارزة على نحو واضح جداً .

والواقع ان الوصي العراقي ، يدعمه ضباط جيشه ، كثيراً
ما كان يحتج على مسلك الملك عبد الله في الحرب الفلسطينية . وفيما
كنت اجهل آنذاك ان كثيراً من الزعماء العرب كانوا يعتبرون
الملك عبد الله مسؤولاً عن الانسحاب الاردني الغريب من ميدان

* استعاضت اسرائيل عن النفط العراقي ، بادىء الامر ، بالنفط الروماني .
ولكن تكرير النفط الروماني في مصافي حيفا ما لبث ان انقطع عام ١٩٤٩ . ومن
ذلك الحين اخذت ناقلات الزيت البريطانية تحمل الزيت من فانزويلا الى حيفا .

القتال ، كان كل امرئ في الجيش العراقي يعرف ذلك ، في ما يبدو . ولقد سمعته من كثير من رجال هذا الجيش مرةً ومرةً . ولكن لم يكن ثمة شيء في المحطة الثالثة الآن . فقد جردت محطة الضخ من آليتها ما خلا بعض الآلات المثبتة على نحو يتعذر معه نقلها . وكانت الأبنية والمنازل الحالية اشبه ما تكون باحدى مدن الاشباح في مناطق التعدين القديمة في « الغرب » الاميركي . وكان المطار لا يزال قائماً ، وكانت الريح تعبث بالجهاز الممزق الذي كان يصطنع فيه لتعيين اتجاه الرياح . ولكن الحداثات القائمة في مقدمة كل من المنازل لم يبق منها غير مجموعة فوضوية من النباتات الصغيرة الذابلة .

وحين غادرنا المحطة الثالثة اجتزنا عدداً من الكشبان غير المستوية كانت رمليةً اول الامر ثم انقلبت بعد ذلك صخرية بازالتية . * ولم يكن هنأ شيء . لا حياة البتة . كنا من قبل نرى بين الفينة والفينة ثعلباً ، او هرة بوية ، بل وحتى ابن آوى او بضعة غزلان ، اما الآن فليس ثمة شيء . لا عشب ، ولا رمل ولكن هذا الدليل الانقلابي على جيولوجية مشوهة ، ليس غير . لقد كاد ذلك ان يكون مروءعاً .

ففي وقت ما ، لعدة آلاف من السنين خلت ، في اغلب الظن ، نسفت الطبيعة من طريق سلسلة من الانقباضات الهائلة قشرة الارض الغرائبية في مساحات تقدر بمئات عديدة من الاميال المربعة ، مطلقةً البازالت السائل نحو الهواء وكأنما ينبع من عين

* البازالت : ضرب من الصخور البركانية السوداء . [المغرب]

جسيمية ما . وليس من ريب في ان ايام مدينة كانت قائمة هناك
خلقة بان تكون قد دمرت تدميراً ، لانه ما من شيء يستطيع
ان يحيا وسط طوفان من الغرائب والبازالت الذائبن المنقضين
من السماوات المتخمة .

وهنا ذكرت ما كنت قرأته في بعض المصادر عن هجرة
غريبة تدفقت موجاتها من الشمال الغربي على «سومر» حوالى سنة
٣٠٠٠ ق.م . ، وتساءلت ما اذا كان اولئك المهاجرون الذين
انتهوا الى العراق وليس لهم ما يكشف عن هويتهم أو ثقافتهم هم
انفسهم سكان هذه المنطقة الاقدمون الذين وفقوا الى النجاة من
ثورة الطبيعة التي اضطرت نيرانها ههنا في يوم من الايام ؟ ..

وطوال ستين ميلاً تقريباً تقدمنا عبر هذه الاراضي التي يطلق
عليها العرب اسم « إقليم الاموات » لننتهي آخر الامر الى المحطة
الرابعة (H-4) فالمحطة الخامسة (H-5) ، فالمطار البريطاني القديم
في « المفرق » . وهنا اتجهنا جنوباً في محاذاة الخطوط الامامية
قرب بحيرة طبريا ، لنصل بعد ساعة أو نحوها الى مقر قيادة القوات
العراقية في الزرقا ، عند نهر الزرقاء التاريخي الذي كان يدعى من
قبل « يبوق » Jabbok .

وفي الزرقاء استجوبت استجواباً موجزاً ، ولكن العقيد مكي
شهد لي لدى القائد ، مقدماً اليه اوراقاً تتصل بي من غير ريب ،
لان القائد لم يكذب طبعاً عليها حتى اخذ يعاملني في ودي غامر . ثم
انه سألني ، في انكليزية ممتازة ، عن خططي ، وتطويع لتزويدي
بأسباب المواصلات وبكل ما يملكه من وسائل تيسر مهمتي .

بيد اني كنت راغباً ، تلك اللحظة ، في ان امضي الى عمان قبل
ان يدركنا الليل .

وتقع الزرقا على ارتفاع بضع مئة قدم عن سطح البحر . وكان
المطر قد اخذ في التهاطل ، ليمزجه البرد بعد ذلك . ولم اكن
ادري على وجه اليقين ما المسافة التي تفصلنا عن عمان ، ولكن
ترأى لي أن علينا أن نقصد اليها مهما كلف الأمر . وأخيراً انجز
العقيد مكي مهامه ورجعنا الى سيارتنا ، في شيء من تصلب
الأوصال ، ففتعثرنا بآلتي التصوير وبكيس ورقي مليء بلحم الضأن
الحمر كان بعضهم قد قدمه الى العقيد في الرطبة . وكانت اشعة
الشمس ، والحرارة المنبعثة من السيارة قد أسالت الدهن فتسرّب
من خلال الكيس الورقي ورصّع أحسن سترة من سترات العقيد .
فلم يكديري الى ذلك حتى أخذته الحنق والقي بكيس اللحم بعيداً
على الطريق حيث وجدته بعض الكلاب والتهمة . وكم ندمت
على أننا لم نحتفظ به لبعض اللاجئين .

وخلال المئة الميل التي اجتزناها كانت خيام اللاجئين المرتجلة
تؤلف مشهداً يتكرر في تعاقب متعاضد على طول الطريق .
والحق ان ما وقع بصري عليه مرةً ، وحسبته لأول وهلة
كتملة من ثياب ممزقة بالية ، لم يكن كذلك . ولفت نظر
العقيد مكي الى ما رأيت ، فاوقف السيارة وهبط منها هو والسائق
وراحا يفحصان « الصرة » . لقد كانت كل ما تبقى من امرأة
عربية وطفلها . وكانت الثعالب وبنات آوى قد التهمت لحمها
ولم تغادر منه غير القليل . وكذلك عثرنا على « صرر » أخرى

تثير الشجون ولكننا لم نحاول الكشف عنها . ولم يكن فيها
جميعاً أيما اثر من آثار الحياة . والواقع أننا ما شاهدنا خيام
اللاجئين الفلسطينيين الذين آثروا ان يضربوا في الصحراء متجهين
الى بغداد على ان يموتوا جوعاً في مخيمات شرقي الاردن وسورية
المكتظة باللاجئين ، إلا بعد أن اجتزنا المحطة الرابعة (4 - H) .
ولكن قلة قليلة منهم وفقت الى ان تبلغ بغداد . وكان اولئك
الذين رأيناهم الآن ، قانعين بمجرد الجلوس امام خيامهم والتحدث
الينا . ان احداً منهم لم يلتمس منا عطاء او صدقة ، ولكن
الجنود العراقيين القوا اليهم ببعض الطعام ، وبعض الملابس ، من
القافلة العسكرية .

وفي الزرقا لم نجد أيّاً من اللاجئين . وكان أقرب مخيماتهم الينا
ذلك الذي يقوم في المفرق . ولكنني علمت انني سوف القي
آلافاً منهم في عمان . فقد اخبرني العقيد مكي أن عدد سكان
شرقي الاردن تضاعف بالمعنى الحرفي للكلمة ، خلال الاسابيع
القليلة التي عقيبت مجزرة دير ياسين ، عندما تدفق على الحدود
الاردنية ، اربعمئة الف لاجيء عربي من فلسطين . والتجأ عدد
آخر من الفلسطينيين يقدر بمئات الألوف الى الخطوط المصرية
والى سورية . وهناك في الاردن حشروا جميعاً في مختلف
الامكنة التي كان في مستطاعها ان تؤويهم . فعاش بعضهم في
مغاور اللوحوش كان الرومان القدماء قد شقوها في مسرحهم الذي
شيدوه في عمان ، وفي الهياكل القديمة الخاصة بالآلهة والألاهات
الاغريقية الرومانية . وفي كل مكان في عمان كنت ترى البنين

قائماً على قدم وساق . ولكنّ الكثرة الكثيرة من اللاجئين كانت لا تزال من غير مأوى عندما سافرتُ الى سورية ولبنان على الاقل . وفي تلك الاثناء كانت سيارتنا تحوِّض في المستنقعات ، وكان المطر يُقلِّم نوافذها المعتمة . ورانَ الضباب خلفنا على غياضٍ من الاشجار متناثرة يقطر منها الماء وتتدلى اغصانها السوداء مثقلةً بالبراعم . والى الامام كانت الطرق المزفتة تعكس وهج أضواء سيارتنا الامامية ، على الرغم من ان بيننا وبين غروب الشمس ساعة او يزيد .

وانعطفت الطريق الى اليسار حول كثيب مرتفع . والى اليمين كانت أضواء تنبعث من منخفض قائم تحتنا . وقال العقيد مكّي :

« هذه عمان . »

كانت اشبه شيء بطاسة ، فهي مدينة تحيط بها التلال باستثناء مسيلٍ ضيقٍ ممتد في ناحيتي الشمال والجنوب يجري فيه نهرٌ ضحلٌ لا يزيد عرضه على عشرين قدماً . وكان يزيد هذه الصورة - مدينة في قعر طاسة - قوةً ذلك المدرج او الامفيتياتر الروماني الضخم القائم تجاه اوتيل فيلاديلفيا مباشرةً . والى يسار فناء الفندق ، المطوق بسورٍ والمحاط بعدد كبير من سيارات الجيب الملطخة بالوحل ، المدهونة باللون الابيض ، والتابعة للامم المتحدة ، هيكلٌ صغير كان في وقت من الاوقات مكرساً لعبادة ايزيس ولكنه ينتظم اليوم عدداً غير قليل من الاسر الفلسطينية الالجنة التي تقوم بمهام الطبخ والغسل اليومية في كثير من الهدوء ، وكأنا

كان ذلك جارياً منذ الازل ، وليس ثمرةً حديثة من ثمرات
البراعة اليايسة .

واوتيل فيلاديلفيا - الذي يملكه آل نزال - من المباني
العصرية القليلة في عمان . لقد شيد على أسس سليمة ولكنه ليس
تحفة فنية . وهو يتألف من بناء رئيسي وجناحين . وكلُّ يرجع
الى عهدٍ ويرقى الى تاريخ . وانما يحتوي الجناحان احدث الأثاث
وادعاه الى الرفه . وينتظم القسم المركزي من الاوتيل المكتب
وصالوناً صغيراً ومشرباً اصغر . وهناك في الدور الارضي غرف
ترقى الى عهد ابعد ، ومطعم الفندق . ويقال ان المطعم كان جيداً
في فترة من الفترات ، ولكن تدفق اللاجئين وما عقب ذلك من
ازمة في الاغذية حطم معنوية المشرفين على المطبخ ، فاذا بالماكل
التي يقدمونها الى زبائنهم خليقة بأن تُخبّل الطاهي البحري ! وهكذا
كنت تجد الاجنبي في عمان يشرب في بار فيلاديلفيا ، ولكنه
يتناول طعامه في « نادي عمان » أو من الأغذية المعلبة . فقد كان
الطعام في « نادي عمان » هذا سائغاً مقبولاً ، وكان يمتاز بشيء
نادر جداً في البلدان الاسلامية : التنوع . فالواقع أني حين خرجت
من معسكرات الجنود في الاردن وسورية كنت قد أكلت
مقادير وافرة من لحم الضأن والحملان حتى لقد عبت ثيابي براحتها
وعبت أنا بتلك الرائحة ، وحتى لقد أمست قطعان الغنم لا تكاد
تشم ريحي حتى تجمد في ارضها وتحقق اليّ ، متسائلة في ذهول :
بأيّ حمل او خروف يذكّر هذا الرجل الغريب ؟ !
وهذه المرة ، كانت مشكلاتي اكثر إلحاحاً . كانت الغرف

كلها مشغولة . واقتضانا البحث عن سرير آوي اليه تلك الليلة جملة
من الاسئلة ووجهت الى النزلاء الذكور غير المصحوبين بواحدة
من النساء ، والمحتملين غرفاً ذوات سريرين . وأخيراً وافق رجل
سوري يتاجر بالآلات القاطعة على أن أقاسمه غرفته ، وبذلك
تحللت الأزمة . وأقنعت العقيد مكّي والنقيب الذي رافقنا في
تلك الرحلة بأن يحتمسنا فنجازنا من القهوة معي ، ثم انطلقا الى
القدس ونابلس عبر اخطر طريق من طرق الشرق الاوسط .

وكان اوتيل فيلاديلفيا ، في تلك الحفظة المرتبكة ، يذكر
المرء بـ « أوتيل سكريب » بعد تحرير باريس . كان يغص باللاجئين ،
والمراسلين الاوروبيين ، والضباط الاميركيين التابعين للامم المتحدة ،
والبجارة القائمين بهمائم سائقي السيارات وسعاة البريد ، وبمحطة لاسلكية
كاملة تابعة لهيئة الامم ، وكانت تحتل عدداً من الغرف في الدور
الثالث (والأعلى) . والى جانب الضباط الاميركيين كانت ثمة
عدد من الضباط الفرنسيين والبلجيكيين . وكانت روح الصداقة
والتسامح بين هؤلاء الممثلين الدوليين مفقودةً بقدر ما كانت
مفقودة لدى النظارة في المدرج الروماني القائم عبر الطريق .

وعلى أية حال فقد كانت البهجة تهيمن على المشرب ، في اوتيل
فيلاديلفيا . وكان ثمة فونوغراف نقّال يهدر بضروب من الاغاني
الفرنسية . ومنها تلك الاغنية المحزونة الباكية التي عنوانها « فتاة
احببتها » . « Une jeune fille que j'aimais » وكانت تحيط
بالمشرب بضع طاولات يحتملها عادة اثنان او ثلاثة من المندوبين
العرب في عمان ، واثنان او ثلاثة من اللاجئين الفلسطينيين الذين لم

يفرّوا مع عائلاتهم فقط ولكن مع أموالهم المنقولة ايضاً، وستة او سبعة من رجال الجيش الاميركيين من مختلف الرتب، ومراسل او مراسلان، وضابط من ضباط الجيش الاردني يكون بريطانياً في الاعم الاغلب، وضابط بلجيكيّ معنيّ بتقويم لغته الانكليزية وتجويدها من طريق الحديث مع الاميركيين.

واذا كانت الاحوال الجوية سيئة، في الغالب - فليس ينقطع المطر الا نادراً - فقد كان المشرب يغصّ بقصاده من الساعة السادسة بعد الظهر حتى الساعة الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل، عندما يقع رجل البار صريع الاعياء، ويحمل الى الفراش. وعلى الجملة فقد كان المشرب موطناً هادئاً الى حد معقول. صحيح ان الكولونيل الاميركي كان يرجع احياناً الى رواق الفندق بعد ليلة من السكر المبكّر وليس على جسده ما يزينه غير بنطلون قصير (شورت) متيحاً بذلك لجماعة من النسوة العربيات مولعة بالحديث الموصول لحظات قصاراً من الصمت الداهل. ولكن هذا كان لا يقع إلا نادراً.

وكان الاحتياج يتخذ سبيله اكثر ما يكون الى صالونات الدور الثاني حيث كان المقامرون من جميع موانئ البحر الابيض المتوسط يربحون ويخسرون ثروات لا بأس بها كل ليلة. وكان القوم يلعبون البوكر، في بعض الاحيان، وعندئذ تحلّ بالجيش الاميركي كارثة. لأن هذه اللعبة تخطت منذ زمن بعيد التخوم الوطنية وغربت لاعبيها من مختلف الامم مقصية عن الموائد الحضر كل خوّار ضعيف. واذا كان الصينيون قد اكتسبوا شهرة

ذائعة في البراعة والدهاء ، في المحيط الهادئ ، فليس من شك في ان اليونان وغيرهم من أبناء المشرق قد فازوا من ذلك بقصب السبق ، في الشرق الاوسط .

على هذا النحو كانت الحياة تجري في اوتيل فيلاديلفيا . ولم يكن ثمة غير لحظات قليلة توقع الملل في النفس ، حتى خلال الايام الباردة الممطرة . وكنت نادراً ما أفارق الفندق او أوغل في الابتعاد عنه . وعلى مسافة نصف ميل ليس غير كان مقر القيادة العليا للفرقة العربية أو الجيش الأردني ، وكنت قد شققت طريقي الى هناك ، في صباح اليوم الذي تلا وصولي ، وسط حشود من العرب الملتهمين حماسة الراغبين في التطوع ، وحشود أخرى كان أفرادها يحاولون انجاز بعض المصالح الخاصة او تحقيق بعض الاهداف الشخصية ، وحشود غيرها أيضاً مؤلفة من فئة من التجار أقبلت لتقنع « إدارة المشتريات » بأن تشتري بعض بضائعهم التي يحتاج اليها الجيش .

ولم يكن البناء الذي اتخذته القيادة العليا مقراً لها على شيء من الفخامة . وكان مكتب المايجور جنرال جون باغوت غلوب ، المعروف بغلوب باشا ، قائماً في الدور الثاني ، خلف غرفة انتظار تنتظم عدة مناخذ ، وموقداً مستديراً وضعت على قمته ركوة كبيرة من القهوة . وكان يجتلي تلك المناخذ ضباط كبار ، من مثل الكولونيل ديك بالمر والمايJOR هورن ، وكلاهما مساعد للباشا . وكان في جملة الأسباب التي ترغبتني في مقابلة غلوب باشا ان « اتحاد الصحافة في اميركة الشمالية » كان قد كلّفني ان آخذ حديثاً

منه ومن الملك عبد الله ايضاً. ومن غير ما اشارة الى دوافعي الشخصية ، طلبت مقابلة غلوب باشا باسم « اتحاد الصحافة » المشار اليه . وهنا ايضاً ، كانت سمعة الصحافة الاميركية في الحضيض . فليس عجباً أن لا استقبل بلهفة مشرقة ، وأن لا أُمْنَح بادیء الأمر غير نظرات من الريبة القائمة . لقد قيل لي أن عدداً من المراسلين الاميركيين حرّفوا أحاديثهم مع « الباشا » تحريفاً مشوّهاً الى حد بعيد . وليس ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأني مختلف عن أسلافي من الزملاء . فما كان مني إلا أن شرعت في تبیان أهدي في مؤكداً رغبتني في خدمة العرب ، قائلاً إن مقامي في بغداد ومرافقتي للقافلة العسكرية العراقية — و كنت أول مراسل أجنبي أُجيز له ذلك — خليقان بأن يُثبتا أنني لست من زمرة أولئك الصحافيين الضالعين مع اسرائيل . وأخيراً نهض الكولونيل بالمر ، وصب لي فنجان قهوة . ثم تركني ليقابل « الباشا » . وخلال غيبته تلك دار بيني وبين المايجور هورن حديث حول معالم الآثار في شرقي الأردن . وكان المايجور هورن هذا هو ضابط المواصلات في الجيش الأردني ، ورجلاً ذا أهمية بالغة بالنسبة اليّ . فبالإضافة الى أنه مصدر السلطة الذي يتعين عليّ الرجوع اليه اذا ما احتجت الى ان استعير سيارةً من سيارات الجيب ، فقد كان يهيمن على سكة جديد الحجاز ، الحلقة قبل الأخيرة من حلم « برلين — بغداد » الذي راود نخيلة الحكومة الألمانية الامبراطورية . وفي عام ١٩١٧ ادت حرب العصابات التي شنها لورانس والكتائب العربية المقاتلة معه الى ايقاع اكبر الاذى بذلك الخط . وبعد ثماني سنوات تقريباً ، دمر ذئب نجد العجوز —

صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية
السعودية اليوم - هو وقواته ذلك القسم من السكة الممتد ما بين
معان والمدينة تدميراً جعلها أثراً بعد عين . وهكذا ينتهي الخط
الحديدي الآن ، عند « الثقب الاشتراكي » على مبعده خمسة وثلاثين
ميلاً الى شمالي العقبة .

وبعد عشر دقائق او نحوها خرج الكولونيل بالمر من « الحرم »
الداخلي وأعلن ان الباشا وافق على استقبالي . ثم إنه رافقني الى
مكتب غلوب وقدمني إليه .

وجون باغوت غلوب رجلٌ بدينٌ ، قصير ، عصبي بعض الشيء ،
ذو ابتسامة خاطفة ، ودعابة ساخرة . وهو ذو كفاءة نادرة ،
وفهمٍ للعربية لا يقلُّ ، باعتراف العرب أنفسهم ، عن فهم ابناء هذه
اللغة لها . وله ابنٌ سُمي « فارس » ، وهو اسمٌ عربي شائع ، فهو
يُعرف عند العرب (الذين تذبذب اسماؤهم في كثير من الأحيان
في أسماء ابناءهم أو آبائهم) بأبي فارس . ومن هنا فقد يكنى
فارس نفسه ، ذات يوم ، بابن جهان ، او ابن جون .

وعلى الرغم من ان غلوب باشا يبدو وكأنه لا يعي ذلك ، فإنه
يحمل ندبةً * مشوهة نشأت عن قذيفة انفجرت في وجهه
خلال الحرب العالمية الاولى فحطمت فكته ** وفيما عدا
ذلك فإن له وجهاً أنيساً ضارباً الى الاحمرار ، وشارباً وخطه

* الندبة : أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد .

** من اجل ذلك كناه العرب في شرقي الاردن بـ « أبي حنيك » .

[العرب]

الشيب ليس في ميسور المرء أن يقول انه هُذَّب على نحوٍ خاص
او وفق طريقة بعينها . والحق انه رجب بي في كياسة ، ولكن
من غير ما حرارة بالغة . وباشرت عملي في الحال ، فقد لمست في
الجو كله شعوراً لو اردت ترجمته الى لغة الناس لما كان غير هذا :
« ليس ثمة متسع من الوقت ، فعليك بالاجاز » .

سألت الباشا ما اذا كان الاردن سيوقع الهدنة ايضاً مع
اسرائيل . (كانت مصر قد القت السلاح قبيل مغادرتي بغداد)
فأجاب انه لا يدري ، ولكن يظن ذلك محتملاً .

وسألته ما اذا كان السلام سيسود ما بين العرب واليهود بعد
ان يقف النشاط الحربي نهائياً .

ففكّر الباشا في ذلك اكثر من دقيقة ، وكان واضحاً من
غير ريب أنه يناضل ضدّ المسارعة الى رفض الفكرة واطّراحها .
واخيراً قال :

« ذلك يتوقف على اليهود وحدهم . فاذا ما سلكوا مسلكاً
حسناً وجنحوا الى السكينة ، فعندئذ يكون من المحتمل ان
يسود السلام . اما اذا ظلوا يسلكون مسلك الفاتحين الاوروبيين
المتعطسين فلن يكون ثمة سلم على الاطلاق . »

وكانت قد نشرت كلمة في احدى المجلات الاميركية
الاسبوعية يفهم منها ان الاسرائيليين انزلوا بالقوات الاردنية
هزائم متكررة . فسألته عن ذلك . فشاع الدم في وجهه ، والتمعت
عيناه الزرقاوان ببريق ضبابي ، ثم قال في وضوح :

« ان القوات الاردنية لم تُكره على التراجع إنشأً واحداً »

أثناء الحرب الحاضرة . فعلى الرغم من انها لم تزد في يوم من الايام على ٥٥٠٠ مقاتل فقد تعيّن عليها ان تحمي خطاً يزيد طوله على ٥٠٠ كيلو متر ، من الحدود السورية الى خليج العقبة . وليس ثمة قوة اسرائيلية ما ، استطاعت ان تكرر هنا على التراجع في أيما ظرف من الظروف . »

ثم ان الباشا اشار الى بعض المغالطات التي تنشرها الصحافة ، لا في الولايات المتحدة فحسب ، ولكن في بريطانيا ايضاً . كانت كلماته موزونة ، ولكنها تقطر غيظاً ، وتصيب - وهذا شيء أهم - كبد الهدف . لقد عرف ، كما عرفت أنا ، أن هذا الحديث لن ينشر في الولايات المتحدة . وعلى الرغم من ان « اتحاد الصحافة في اميركة الشمالية » سارع الى اذاعة تفصيله بريقاً فإنه لم يبلغ غير صحفحات قليلة جداً .

بعد ذلك وجهت الى الباشا هذا السؤال :

« لماذا لا تجيز لي ان اصحب القوات الاردنية كمراقب ، وان التقط بعض الصور الفوتوغرافية ، وأبذل غاية ما استطيع من جهد في لفت انتباه الشعب الاميركي الى بعض الحقائق لعل في هذا ما يساعده على ان يغيّر موقفه من المسألة ؟ فأنا واثق من ان بسط الحقائق للرأي العام الاميركي بسطاً صحيحاً خليق به ان يهز مشاعر عدد كبير من الاميركيين ، فيطالبون حكومتهم بأنصاف العرب . »

وإنه ليبدو لي عجبياً ، الآن ، أني ما أزال ، وقد بلغت العقد الخامس من العمر ، مثالياً . إن أحداً لم يلفت نظري الى

ان الكذبة العاطفية اشدّ قوةً من الحقيقة المجردة ، على الرغم من
أني أنتسب الى بلادٍ حدّدت الأكاذيب العاطفية سياستها طوال
قرنٍ من الزمان ! وأياً ما كان ، فقد رفض الباشا أن يتعهد لي
بشيء . لقد قال إنه محتاج الى اسبوع او اسبوعين يدرس خلالها
المسألة . وهكذا انصرفت عائداً الى الفندق قبل أن امتطي متن
احدى السيارات العامة الى قيادة القوات العراقية في الزرقا .
وبلغتُ « المثلث العربي » في الوقت المناسب . كانت أشياء
كثيرة تجري هناك . وكانت هزيمة القوات المصرية قد حررت
الجيش الاسرائيلية في الجنوب فهي تضغط في قوة وعنف على
الحدود السورية والاردنية في موازاة الانخلاء الجنوبية الشرقية
من بحيرة طبريا . وبما زاد الموقف حرجاً صعوبة الاتصال بين
القوات الاردنية والقوات السورية . ولعل وجود القوات العراقية
على تلك الحدود انقذ الشرق الاوسط من مجاز جديد ، كمجاز
دانترغ ، خليق بأن يجعل الحكومات العربية مهتاجة على نحو
موصول . وكان واضحاً أن واضعي الخطط العسكرية الاسرائيليين
رغبوا في ان يدقوا إسفيناً يعتنق محطة روتنبرغ لتوليد الكهرباء
من مساقط المياه ، كما يعتنق امتداد نهر الاردن جنوبي بحيرة
طبريا . ولو نجحوا في انفاذ خطتهم اذن حرّموا شرقي الاردن من
التيار الكهربائي ، ولأمسى نهر الاردن - الحيوي بالنسبة الى
الحياة الزراعية في شرقي الاردن - تحت رحمة المهندسين الاسرائيليين
القادرين على ان يصدّوا النهر عن سبيله ساعة يشاءون .
لقد كان ثمة من غير ريب وقفٌ لإطلاق النار يعدل هدنةً

كاملة ، ولكنّ الاسرائيليين لم يكفّوا يوماً عن خرق أحكام
الهدنة منذ حزيران من السنة الماضية ، فلا عجب اذا ما عكروا
صفو الهدوء الحاضر ايضاً ، ابتغاء الكسب والتوسع . وكان
غلوب باشا قد علّق على سلسلة الهجمات والغارات الحالية التي
هدفوا من وراءها الى تحقيق تلك الغاية بسخريته اللاذعة فقال :
« ان عهد الشرف الاسرائيلي ليس له غور ! »

٨. في « المثلث العربي » بفلسطين

معركة بين العراقيين والاسرائيليين

وفي الزرقا اتضح لي ، في الحال ، أنني أخطأت فحسبتُ مثلثاً عسكرياً ما كان في الواقع مثلثاً سياسياً . صحيح أن سورية وشرقي الأردن (ولقد صارت تعرف حديثاً بالمملكة الاردنية الهاشمية) واسرائيل التقت عند مثلث تشكل المنطقة المحيطة بملتقى الأردن واليرموك جنوبي بحيرة طبريا ذروته ، ولكن لم يكن ثمة غير قليل من النشاط الحربي ، ولم أجد أيما قوة عراقية هناك . كان ثمة ، بدلاً من ذلك ، كما اخبرني قائد الموقع ، قوة سورية يندبسط جناحها الأيسر على بلدة سمخ . وعبر الاردن ، على الضفة الغربية ، كانت قوة اردنية صغيرة على اتصال بالجيش السوري . وعلى أية حال ، فباستثناء حرب العصابات التي شنتها فوزي القاوقجي ، الذي عرفناه من قبل في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين وثورة رشيد عالي عام ١٩٤١ ، لم يشهد ذلك القطاع أحداثاً ذات شأن . وكانت قاعدة فوزي ورجاله ، آنذاك ، قرب الناصرة ، وكانت القوات الاسرائيلية منهمكة في استعادة تنظيمها بعد انتهاء

الحرب مع المصريين .

وكان المثلث العربي الحقيقي - كما علمت - هو تلك المنطقة التي تطوقها الجيوش المحيطة بطول كرم وجنين ونابلس . وخط الهدنة الحاضر (١٩٥٠) يعتنق هذه المدن الرئيسية ويمتد في اتجاه الشرق من نقطة تبعد نحواً من ميل واحد شمالي جنين الى الحدود الاردنية على نهر الاردن . والحق ان الحدود التي رسمتها الامم المتحدة تكاد تجري في محاذاة خط الدفاع العربي ، تقريباً .

وفي ذلك الحين كانت المصاعب قد بلغت ذروتها . فقد تم لقوات اسرائيل المسلحة تفوق غامر في العداد والعدد وهيمنت تلك القوات ، بالطائرات التي حصلت عليها من بلدان اوروبية الغربية والشرقية والولايات المتحدة ، على مقاليد الجو . وفوق ذلك فقد كانت تملك مصفحات ثقيلة حديثة في حين لم تكن القوات الاردنية والقوات السورية تملك غير سيارات مصفحة خفيفة . صحيح ان العراقيين كانت لديهم بعض الدبابات القليلة ، ولكنها لم تكن قادرة على الصمود في وجه دبابات شيرمان و « الدبابات الصليبية » Crusaders الاسرائيلية . وزاد الطين بلة ان اسلحة السوريين والاردنيين والعراقيين لم تكن موحدة . فقد كان السوريون يصطنعون سلاحاً فرنسياً ويطلقون ذخيرة فرنسية ، في حين كان الاردنيون والعراقيون يصطنعون اسلحة بريطانية وذخيرة بريطانية . وكانوا جميعاً مفتقرين الى الذخائر افتقاراً جدياً . وكان الجيش الاردني يملك ، على ما عُرف في ما بعد ، اثنتي عشرة رصاصة لكل رجل من رجاله ، ليس غير ، عند اعلان الهدنة !

وعلى أية حال ، فقد كانت القوات العربية حول طبريا والمثلث العربي على أتمّ الحذر. فقد كان معروفاً أن الاسرائيليين يعززون قواهم امام المواقع السورية والاردنية جنوبي بحيرة طبريا ، ولكن حرب العصابات المزعجة بقيادة فوزي القاوقجي الذكية البارة شلت نشاطهم . والحق ان قوات فوزي نادراً ما زادت على مئتين وخمسين رجلاً في أيما وقت من الأوقات . وفيما اتخذ من موقع قريب من الناصرة قاعدة لرجاله ، راح يجوب ارجاء فلسطين الشمالية كلها ، من الحدود اللبنانية الى ضواحي حيفا . وكان رجاله منظمين تنظيمًا رائعاً ومجهزين تجهيزاً حسناً بالاسلحة الاوتوماتيكية ووسائل النقل الآلية التي غنموها من الاسرائيليين . ولم يكن لديهم أيما سلاح جوي - وهو نقص كان خليقاً به ان يهزمهم آخر الامر - ولكنهم بذلوا في الاسابيع التي تلت عقد الهدنة بين مصر واسرائيل * جهداً كبيراً لصدّ الهجمات الاسرائيلية الكاسحة على « المثلث » وعلى القوات العربية القليلة العاملة قرب سبخ .

وكان القاوقجي يتتبع تكتيك حرب العصابات المعروف ، والذي يتلخص بكلمتي : « إضرب » و « انسحب » . ولكن فوزي - وهو لبناني اشقر فارغ الطول - كان فارساً خليقاً به ان يوقع البهجة في قلب « جب ستewart » * وكان يعرف كل تل وكل وادٍ من تلال فلسطين وأوديتها . فكم من مرة استدار

* وقعت الهدنة في ٢٤ شباط ١٩٤٩ .

* هو جيمس إيويل براون ستewart (١٨٣٣ - ١٨٦٤) أحد القادة العسكريين الاتحاديين في الحرب الاهلية الاميركية . [المغرب]

متعقباً الجنود الاسرائيليين وهاجمهم من خلاف، حيث لم يكونوا يتوقعونه على الاطلاق . وكانت هذه المناورة تنتهي دائماً بضرب من المطاردة يثير روح الدعابة عند العربي ويهيجها . وفي بعض الروايات الموثوقة ان فوزي و كبار اعوانه قضوا مرةً ساعاتٍ بكاملها فوق قمة كثيب مجاور وهم يهدرون بالضحك فيما كانوا يراقبون تشتت القوات الاسرائيلية وهزيمتها المنكرة .

وفي اوائل شباط ، وكانت محادثات الهدنة قد استهلّت ، بذل الجيش الاسرائيلي جهداً قوياً لتحسين مركزه من طريق الهجوم على رأس « المثلث العربي » في جنين . وكانت الهدنة قائمة ، قانونياً ، منذ السابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٨ ، ولكن قبل ذلك التاريخ وبعده على السواء كان الصهيونيون يلقون تأييداً وتشجيعاً من جانب مندوب الولايات المتحدة في الامم المتحدة ، الذي كان يرئس ، آنذاك ، مجلس الأمن ايضاً . ليس هذا فحسب ، بل ان الساناتور اوستن Austin حال بين بعض الدول الاخرى وبين ادانة اسرائيل لخرقها المتكرر اتفاقات ما قبل الهدنة الموقعة في رودس . وحين استغل الاسرائيليون هدنة تشرين الاول فاحتلوا النقب خارقين بذلك احكام مشروع برنادوت لم يتورع مندوب الولايات المتحدة في هيئة الامم عن تأييد اسرائيل ، وصرح بقوله : « ان حكومته تعارض في اقتطاع ايما جزء من رقعة الدولة الاسرائيلية ما لم توافق اسرائيل هي نفسها على ذلك » !

وإذ وجد الاسرائيليون مثل هذا « الشيك الابيض » في يدهم

راحوا يتخطون كل الحواجز الاخلاقية والقانونية الدولية .
وفي استهتار كامل بحقوق الآخرين طفقوا يغيرون على الاراضي
العربية ههنا وههناك ويضمونها الى دولتهم . ولم يكن ليردعهم
عن ذلك غير ما كانوا يلقونه احياناً من مقاومة عربية فعالة .
حتى اذا اصطدموا بشيء من هذه المقاومة رفعوا عقيرتهم بالشكوى
من « العدو » الى الولايات المتحدة وهيئة الامم المتحدة .
ووجد كثير من المراقبين الدوليين في لجنة الهدنة المختلطة ان من
المتعذر عليهم العمل في هذا الجو ، فاستقالوا من وظائفهم وعادوا
الى بلادهم . لقد حال الصهيوينيون بينهم وبين أداء واجبهم في
ميدان القتال ، وسرقوهم كلما حاولوا أن يصرفوا شكات رواتبهم
في الاراضي الصهيونية . والحق ان الاميركيين الذين وفدوا
على اسرائيل مشبعين بالعطف على الصهيونيين والثقة بعدالة قضيتهم
رجعوا الى الولايات المتحدة بعد بضعة أشهر وقد عصف في جوانبهم
بغض مرير لليهود جميعاً ، باستثناء الذين ثبت لدى اولئك
الاميركيين ، من طريق المعرفة الشخصية ، أنهم من ذوي
الاعتدال والأنصاف . ولقد اجتمعت الى احد اليهود الاميركيين
— وهو رجل بارز في مدينته — إثر عودته من اسرائيل ، فقال
لي متحسراً متأوهاً :

« ولكن تلك الحثالة ليست حتى من البشر ! »

وكان الهجوم على جنين ذا خطر خاص لأنه كان آخر تهديد
حقيقي للمثلث العربي . ولقد وقع ، شأن معظم الهجمات الصهيونية ،
تحت جنح الظلام . ولكن الليل ، في جنين ، خان اليهود وغدر بهم .

وكانت القوات العراقية المراقبة حول كثنان جنين منتشرة من بُرجين الى عرّانة ، على مسافة تبلغ نحواً من ميلين . والى الشرق من طريق جنين - حيفا كانت تقوم مستعمرتان صهيونيتان صغيرتان . وكانت هاتان المستعمرتان هما «يامون» و«كفر دان» . واذ كانتا ، ظاهرياً ، مستعمرتين زراعتين فقد استمدتا حاجتهما من الطاقة الكهربائية من محطة روتنبورغ القائمة عبر الاردن . (مما تحسن الاشارة اليه هنا أنه في خلال الحرب الفلسطينية أصبح للقرى والمدن الاسرائيلية بأن تستمد حاجتها من الطاقة الكهربائية من الاراضي الاردنية) وكانت شوارعها ومنازلها تتلألأ عادةً بالانوار الساطعة بعد غروب الشمس .

وفي تلك الليلة بالذات ، ليلة ١٤ شباط ، في ما أذكر ، لاحظ المراقبون العرب ان أضواء الشوارع في تينك المستعمرتين الصهيونيتين كانت قائمة ، وأن المنازل كانت مهجورة في ما يبدو . وعند الساعة الثامنة حملت هذه الانباء الى مقر القيادة العليا للقوات العراقية ، واستعدت المواقع العراقية الأمامية لكل طارئ . وكانت تلك المواقع كناية عن خنادق او «أجخرة ثعالب» Foxholes حُفرت عميقاً في سفوح التلال بحيث تهيمن على المداخل المؤدية الى البلدة والى مقر القيادة . والى جانب البنادق ذات الحراب كان العراقيون المحتمون في تلك الخنادق يملكون مدافع خفيفة من طراز «لويس» وبضعة مدافع ثقيلة من طراز «فيكرز» . وكانت على قمة الكثيب شبه قلعة محوطة بأكياس الرمل وبعدد من الخنادق وأجهزة الاضواء الكشافه . وكان نحو من خمسين

جندياً يرابطون هناك . أما المواقع الأمامية المتناثرة فكان كل منها يضم جنديين او ثلاثة جنود في العادة .

وعند الساعة العاشرة والنصف خيم الصمت على المكان ، وبلغ التوتر ذروةً مقلقة . كانت القرى المتلائة عادةً بالنور مظلمةً كلها في ناحية الغرب ، وكان ضبابٌ دانٍ يزحف من جانب البحر الأبيض المتوسط ، فيزيد السكينة ثقلاً ويشيع الوحشة في الجو كله . وفي محاذاة الكتيب تحرك الجنود العراقيون ، محتسرين حذرين ، في خنادقهم ، محلقين بأعينهم ، محاولين أن يكتشفوا حركةً ما وسط الظلام . ولم يكن القمر متوقعاً قبيل ساعات الصباح الأولى ، وكان الضباب يغشى النجوم . وغدت التربة السمراء رطبةً ، نديةً ، باردةً جداً ، فهي تلتصق بأيديهم ، فيضطرون الى ازالتها عنها قبل ان يمسكوا ببنادقهم .

وينبغي ان تكون الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ببضع ثوانٍ عندما ابصر اول جندي عراقي الجماعة الزاحفة امامه . وفي الحال أقجم صفارته في فمه واطلق صفرةً مدويةً ، وافرغ من مدفع «لويس» الذي يحميه فيضاً من اللهب والرصاص . وفي ثانيّتين اثنتين اشتعلت المنطقة المحيطة بـ «كفر دان» بضوء ساطع ازرق مبيض . واخيراً أوقفت ثلاث شاحنات على متنها مدافع مضادة للطائرات ذات اضواء كشافة عند نهاية الشارع ، حيث يبدأ الكتيب ، وكشفت اضواؤها القلعة ومواقع المدافع العراقية . وكذلك كشفت الاسرائيليين المهاجمين الذين جثوا ، الآن ، على ركبهم ، وامطروا الارض والقلعة بوابل من نيران بنادقهم

الايوتوماتيكية . وكانت وجوههم وايديهم قد سُودت على احدث
الاساليب التي تصطنعها فرق الكوماندوس البريطانية . وكان من
الجائز ان لا يُروا على الاطلاق لولا ان كشفتهم الاضواء المضادة
للطائرات ، وكانت تعمل من ورائهم .

ولكن الاضواء الكاشفة العراقية ما لبثت ان نشطت الى
العمل ، فانطلق الاسرائيليون ، محدودين مطاطي الرؤوس ،
وقد ظهرت معالم اجسادهم واضحةً وكأنما يجرون على
مسرح من المسارح . وحتى حين تحركوا عبر اعشاش المدافع
الايوتوماتيكية او صعّدوا في الكتيب بدت معالمهم جليةً للعيان
لأن بنادق العراقيين وحراهم كانت تتعقبهم . وتقول بعض التقارير
ان عدد الجنود الاسرائيليين الذين اشتركوا في الهجوم يناهز الألف .
والواقع ان بعض هؤلاء تمكنوا من الوصول الى القلعة فعلاً .
كانوا مقاتلين مختارين ، وذوي شجاعة ، ولو لم تكن تحتل قمة
الكتيب نفسها كتيبة عراقية لم تفد على ميدان القتال إلا منذ
فترة يسيرة اذن لكان جائزاً أن يوفق أولئك المقاتلون الاشداء
الى انتزاع الكتيب والموقع من ايدي المدافعين عنها . لقد
اقتحموا المراكز العراقية الامامية وسحقوها في الدقائق القليلة
الاولى ، على الرغم من ان ضحاياهم كانوا عشرين مقابل جندي
عراقي واحد ، وانتهوا الى القلعة وخنادقها في مدى خمس عشرة
دقيقة ، لأن معركة حامية كانت تدور عندما انقضت طلائع
الكتيبة العراقية الجديدة بجرايها على الاسرائيليين في تفانٍ مبهج
طروب . لقد اكتشف الهجوم الاسرائيلي بعد بضع ثوانٍ من تمام

الحادية عشرة . فلم تبلغ الساعة الحادية عشرة والنصف حتى كانت
فلول الاسرائيليين الباقين على قيد الحياة قد ولت الادبار هابطة
الكثيب ، مجتازة خنادق القوات العراقية ، معرضة نفسها لوابل
من نيران مدافعها ، لتصل آخر الامر الى الشاحنات التي كانت
تنتظرها بين منازل المستعمرة . وكانت اضواؤهم الكشافات قد
اغضت عيونها حالما شرعوا في التراجع ، ولكن الاضواء العراقية
الكشافات ظلت تسطع وتتهوج ، فهي تمكن القوات العربية من
إصلاء اليهود المنهزمين نارا حامية على طول خط ارتدادهم الى
الطريق التي تظلمها الاشجار . والواقع ان الاسرائيليين تركوا
وراءهم ثلاثئة وعشرين رجلاً بعضهم قتلى وبعضهم جرحى ، واربع
شاحنات (اثنتان منها تحتويان على ذخائر حربية) ووحدة من
وحدات الاضواء الكشافات ، وشاحنة مسلحة بمدافع « مورتو » لم
تستعمل قط في ذلك اللقاء القصير .

وبعد شهر تقريباً قام الصهيونيون بمحاولة جديدة في العقبة من
اجل الحصول على كسب جديد يضاف الى مكاسبهم الاقليمية
السابقة ، على الرغم من ان المرء قد يظن ان حافزهم الى ذلك لم
يكن غير الجشع المحض . وتفصيل ذلك ان اسرائيل تملك مرفأين
ممتازين انشأهما البريطانيون في حيفا وتل ابيب . ولم تكن المملكة
الاردنية تملك غير ميناء العقبة العتيق القائم عند رأس خليج العقبة .
ولولاه لكانت تلك المملكة مطوقة بالبر من جميع اطرافها . وعلى
الرغم من ذلك فقد حاولت اسرائيل ان تستولي عليه . وانما
وقع ذلك في الثامن من آذار ، بعد نحو من اسبوعين انقضيا على

توقيع الهدنة مع مصر .

وتقوم العقبة عند تلك النقطة التي ينخفض فيها ذلك
الفلق الجيولوجي المسمى « وادي عربة » الى ما دون مياه خليج
العقبة ، ويستمر تحت البحر الاحمر حتى ينبثق من جديد في
الاراضي المصرية . بيد انها ليست الموطن الاوحد الذي ينخفض
فيه وادي عربة الى ما دون سطح البحر . ففي أريحا ، حيث
الطريق بين القدس وعمان تجوز جسر اللبني فوق نهر الاردن ،
يصل الوادي الى حضيضه المنخفض ألفاً ومئتي قدم تقريباً تحت
سطح البحر . اما في بحر الجليل (بحيرة طبريا) فيبلغ انخفاضه نحواً
من سبع مئة قدم تحت سطح البحر . وانما ينطلق نهر الاردن (او
« النهر الذي يجري نزولاً ») من الجداول المنبثقة عن جبل
حرمون و وادي البقاع ، فتجتمع مياهه في بحيرة الحولة ، ويتمعج
بضعة اميال ليندفع بعد ذلك الى سلسلة من المضائق ودوامات
النهر تسلمه متعثراً الى تلك « الادغال » القائمة على ضفافه الخصيبة ،
ومن ثم الى البحر الميت ذي الثروة المعدنية .

ويتخذ نهر الاردن سبيله في محاذاة وادي عربة . وهو نهر
تاريخي ، لان وادي عربة موطن تاريخي . فهنا وجدت بقايا
الانسان القديم الذي يرقى الى العصر الحجري ، قرب الجليل ، كما
عثر على عظام بعض الفيلة والاسود . وعلى طول جنبات المضائق
التي تؤشك ان تكون عمودية يبدو التتضد الطبقي Stratification
الذي ينهض دليلاً على ان حيناً من الدهر قد تقضى كان وادي
عربة خلاله تحت سطح البحر ، ويكشف عن العصور المتعاقبة التي

انبثق اثناءها من تحت الماء ليغدو براً من جديد .
وفي العقبة ، يندفع وادي عربة الى الساحل الرملي الضيق قبل
ان يغوص في الخليج . وهنا تؤلف جبال النقب الكوارتزية *
المخططة مثل سكر القند (او سكر النبات) اساساً للمضايق
الغرائبية التي تجعل التسلق عسيراً ، حتى على المعزاة . والوادي
العميق ذو الجنبات الشديدة الانحدار يكاد يكون دائماً في الظل ،
وهو حافل بالصخور المنفصلة البالغة الضخامة . والى نقطة تبعد
مئة ميل او يزيد الى الشمال ، كان نهر الاردن قد خسر نفسه في
البحر الميت ، فليس ينساب الآن في المجرى الضحل غير ما اجتمع
من مياه الامطار . الا ان الجبال تشهد في بعض الاحيان فيضانات
فجائياً مدمراً ، ينزل الصخور المنفصلة الضخمة من قن التلال :
حجارة هائلة في حجم المنازل تتعثر وتتدحرج في صدر الفيضان
الاسمر المسور ، الحافل بالانقاض والنفايات ، والهادر تهادراً
عنيفاً فيما هو يهبط الوادي مندفعاً غامراً كل ما يعترض سبيله حتى
يبلغ الخليج ويرتمي في أحضان النسيان . وكـم من رجل قضى
نحبه في وادي عربة هذا . فمرتين اثنتين حاولت الحكومة
البريطانية ان تنشيء طرقاً مرصوفة بالحصباء في قرارة الوادي .
ولا تزال بعض الفلز المعدنية الصغيرة الممزقة تبدو للعيان ، ههنا
وههناك ، على صفحة الرمل . واليوم تثب سيارات الجيب التابعة
للجيش الأردني فوق جوف الوادي طوال عشرين ميلاً من الحيفة
والحذر - في موسم الامطار - قبل ان تصعد في طريق شديدة

[المغرب]

* الكوارتز Quartz ضرب من الصوان .

الانحدار تؤدي آخر الامر الى منبسط النقب المرتفع ، والى الطريق المؤدية الى النقب الاشتري ومعان .

والى الغرب من وادي عربية تقوم اسرائيل ، وجبال النقب الغربي . وليس ههنا شيء . لا ماء ولا تربة . ولكن ثمة مأوى صياد عربي ، ونبع صغير لا تصلح مياهه للشرب الا حين يبلغ موسم الامطار ذروته . وعبر رأس الخليج تقع الاراضي المصرية وقرية « أم رشرش » بوصفها النهاية الشمالية لطريق تؤدي عبر جبال سيناء الى البحر الابيض المتوسط ولو قد أراد احد ان يسلك الطريق الاقصر من العقبة الى البحر الابيض المتوسط اذن لسلك هذه الطريق ، لانها تتصل عند الجانب الآخر من الجبال بالطريق الممتدة ما بين العريش وغزة .

وهي شأن الطرق جميعاً مجاز ذو اتجاهين . والى شمالي خط الحدود كما رسمته الهدنة ٢٤ شباط ١٩٤٩ تقوم قرية العوجة الفلسطينية السابقة . وهي تقع على الطريق المعبدة التي تمتد الى الموقع الجنوبي الاسرائيلي الحصين في بئر السبع . والعوجة مركز لمنطقة مجردة من السلاح وفقاً لاحكام اتفاقية الهدنة المصرية الاسرائيلية التي نصت على احكام خاصة بتلك المنطقة * .

* جاء في الفقرة الاولى من المادة الثامنة ما نصه :

« ان المنطقة التي تنتظم قرية العوجة وما جاورها ... يجب ان تجرد من السلاح . ويتعين على القوات المصرية والاسرائيلية جميعاً ان لا تقربها بحال من الاحوال . وان رئيس لجنة الهدنة المختلطة ... سوف يأخذ على عاتقه مهمة التأكد من ان الفريقين يلتزمان احكام هذه المادة » سلسلة معاهدات الامم المتحدة ، المجلد ٤٢ ، سنة ١٩٤٩

وحوالى مطلع آذار ، فيما كان مندوبو اسرائيل والاردن قد
توصلوا الى اتفاق خاص بالهدنة وقعه كلا الفريقين في ٣ نيسان ،
دخلت العوجة من بير السبع قوات اسرائيلية مزودة بالدبابات ،
والمدفعات السياره ، والسيارات المصفحة ، وناقلات الجنود .
واخترقت القوات القرية ثم انعطفت نحو الطريق المؤدية الى غزة ،
وبعد ميل او نحوه عادت فانعطفت نحو طريق قديمة تقود الى
بيرين . وكانت هذه الطريق تجري في موازاة سكة حديدية
مهجورة سايرت القوات العسكرية الاسرائيلية حتى جبل السبعة ،
قبل ان تغيب عن الانظار . واجتازت القافلة الاراضي المصرية
مسافة ميل واحد من بيرين . وكان ذلك خرقاً خطيراً لاحكام
الهدنة . صحيح ان الصهيونيين لم ينقطعوا يوماً عن خرق تلك
الاحكام منذ ان دخلوا المنطقة المجاورة للعوجة . ولكنهم هذه
المرّة بالغوا في العدوان ، فغزوا الاراضي المصرية نفسها .

وفي ليل ٦ - ٧ آذار سلكوا الطريق المتجهة شرقاً نحو خليج
العقبة معتمدين بذلك على حرمة الحدود المصرية . وفي صباح اليوم
السابع من آذار دخلوا قرية أم رشرش وطرّدوا سكانها منها
مضرمين النار في منازلهم . وبعد انقضاء اسبوع على هذا العدوان
اخبرني مهندس اسكتلندي من مهندسي التعدين كان يقطن ، هو
وابنه ، قرية أم رشرش ، قائلاً :

« ان اولئك المجرمين ما كانوا يمزحون . لقد اخرجوني من
بيتي ، ونهبوه امام عيني . انا لا أدري أين ولدي ، ولكنني أحسب
أنه سليم في التلال . »

وفي اليوم الثامن من آذار شعرت حامية العقبة الهزيلة بالعدوان
الاسرائيلي من طريق بعض العرب الذين حملوا اليها نبأه ووصفوا
لرجالها ضخامة القوة اليهودية المغيرة والاسلحة التي زُوِّدَتْ بها .
والعقبة ليست بلدة ذات شأن سواء من حيث الاتساع او
من حيث الثروة . لقد صهرت النجاس ، في تاريخها القديم ، لفراعة
مصر . ثم إن الملك سليمان اطلق عليها اسم إيلات * عندما كانت
السفن التجارية القادمة من المحيط الهندي وارض مصر تحمل البضاعة
عبر البحر الاحمر او القنوات التي تصل النيل بالبحر الاحمر ، تلك
القنوات التي وُجِدت على نحو يكاد يكون موصولاً منذ الالف
الثاني قبل الميلاد ، والتي افاد المهندس الفرنسي دي ليسبس من
آخر قناة منها ، في حفر قنال السويس الحاضرة .

وبعد مجيء الرومان صارت العقبة تعرف بـ «إيلاتا» واكتسبت
جداراً مجرياً حجرياً . حتى اذا سقطت رومة عادت فعرفت بالعقبة
كرةً اخرى ، وسكنها جماعة من التجار العرب ، ومن بعدهم
الأتراك .

وبنى الأتراك قلعة حصينة في العقبة ، ولكنها لم تصمد في وجه
السفن الحربية البريطانية وبنادق العرب المقاتلين مع الكولونيل
لورانس . اما اليوم فتكاد تكون خربة كالجدار البحري ، ولكنها
كلاهما دليلٌ شاهد على ماضيها المجيد . وفي ما عدا ذلك تقوم في
العقبة اليوم محطة تبريد صغيرة يحفظ فيها السمك المصيد في الخليج ،
ومحطة تضاھيها في الصغر لتوليد الكهرباء ، وهي تصطنع أياماً

* او ايلة كما تدعوها المصادر العربية القديمة . [العرب]

ضرب من ضروب الوقود تقريباً ، ابتداءً من الحطب العام على وجه الماء الى الكيروسين . وثمة كذلك فندق صغير يديره رجلٌ عربي كان في وقتٍ ما مهرباً للمسكرات في نيو جيرزي . اما البلدة نفسها فتتألف من مئة منزل تقريباً قائمة في محاذاة زاوية الكثبان التي يخترقها وادي عربية عند مصبه . وعلى منتصف الطريق الهابطة من سفح الكثيب ، ووسط غيضة من النخيل ، ينهض مسجد صغير ذو مؤذنةٍ اعلاها مخروطي الشكل ، وسطحها من حديدٍ مُغْلَوْن * (مزيبق) . وسكان البلد صيادو سمك وتجار صغار .

وعلى مسافة خمسين ياردة تقريباً من الجدار البحري الروماني ، ورصيفه الحجري الاقل فعالية ، على الرغم من أنه احدث من الجدار عهداً ، يقوم ببناء مربعٍ مطلي بالسكس ينتظم مكتب محافظ البلدة ، ومدير شرطتها ، وثكنة تضم أربعة رجال من حرس الصحراء التابع للجيش الاردني ، وبعض الغرف للضيوف غير المنتظرين . يضاف الى ذلك مطبخ يشرف عليه عربي فارع الطول مخيب الآمال . واياً ما كان فقد كان هذا البناء هو حصن العقبة وخط دفاعها الاوحد .

ولكن كان ثمة تليفون ايضاً . فلم تكد الحامية الرباعية او الخامسة (اذا اضفنا الى الجنود الاربعة قائدهم ، وكان برتبة رقيب)

* galvanized نسبة الى لويجي غالفاني (١٧٣٧ - ١٧٩٨) الفيزيائي الايطالي الذي اكتشف بتجاربه ان الكهرباء قد تنشأ عن العمل الكيميائي .
[المغرب]

تثبتت من صحة الانباء التي نُقلت اليها عن الغزو الاسرائيلي حتى نصب أفرادها مدافعهم من طراز « لويس » على سطح القلعة ، مولين ظهورهم حدود المملكة العربية السعودية التي تبعد عن مقرهم بضع ياردات ليس غير ، واستعدوا للدفاع عن القلعة في وجه الغزاة بالغاً ما بلغ عددهم . فيما حاول عامل التليفون ان يتصل بقيادة القوات الاردنية العليا في عمان .

وعند الساعة التاسعة صباحاً تقدمت القوات الاسرائيلية عبر طريق ام شرش واقتربت من الحدود عند وادي عربة . وفي ذلك الحين كان جناحها الايمن على مبعدة ثلاثين ياردة ، تقريباً ، من مياه الخليج ، في حين كان جناحها الايسر يستدير حول الطريق الضيقة القذرة التي تمتد من شارع العقبة الرئيسي الى رأس الخليج عند مأوى صياد السمك . وبين وادي عربة والبلدة وقلعتها تقوم ارض منبسطة مرتفعة بعض الشيء تتحدر نحو البحر . وفي الوقت نفسه ، يمتد هذا المرتفع الرملي عبر الطريق المؤدية الى النقب ويغدو محطاً صالحاً للقاذفات الخفيفة . ولقد خلف البريطانيون هناك ، عند نهاية الحرب العالمية الثانية ، مطاراً مخرباً بعض الشيء ولكن في الامكان استخدامه عند الاقتضاء ، كما خلفوا بناءً حكومياً .

وفي تلك الاثناء كان عامل التليفون في العقبة قد وُفق الى الاتصال بالموقع العسكري في معان ، فسارع هذا الى ابلاغ القيادة العليا في عمان النبأ . ونشط غلوب باشا للعمل . وُجمع حرس الصحراء من جميع المواقع المجاورة للعقبة وأُمرُوا بالالتحاق بالحامية

المدافعة عن القلعة . ثم ان غلوب اشعر القيادة البريطانية في مصر
 بالحالة . وكانت معاهدة ١٩٤٥ تفرض على كل من بريطانية
 والمملكة الاردنية ان تهرع الى نجدة الاخرى حين يتهددها عدو
 بخطر . ولقد كانت ههنا حالة من حالات الخطر . ومع ذلك فقد
 بدا وكأن حليفة الاردن سوف تصل لنجدها بعد فوات الاوان .
 وفي القلعة ، كان قد انضم الى حاميتها المؤلفة من خمسة رجال
 ماجور بريطاني ذو قوة بالغة وبأس شديد ، هو جيوفري كروكر
 Crocker وكان قد لمع نجمه في حملة بورما عندما قضى نحواً من
 ستة اشهر خلف الخطوط اليابانية وأقضى مضاجع الجند الياباني
 بغاراته المحكمة ، فقال من اجل ذلك وسام D S O البريطاني *
 كان رجلاً نحيلاً فارع الطول ذا شارب اسود غير مهذب .
 وكان يتنشق السعوط على نحو موصول حتى لتغدو مناديله كأكية
 اللون . وكان قد قام بآثرة حديثة العهد قبيل انسحاب المصريين
 من الفالوجة ، وبعد توقيع الهدنة بيومين . وتفصيل ذلك ان هذا
 الضابط البريطاني اصطحب جندياً عربياً وتسلسل عبر اسرائيل
 طوال يومين اثنين قبل ان يصل الى المكان الذي رُكمت فيه
 الذخائر الحربية المصرية التي استولي عليها الصهيونيون . وكانت
 هذه الذخائر مخطوطة بالاسلاك الشائكة . حتى اذا اقترب هو
 والجندي العربي منها نسفاها عن بكرة أبيها ، ثم انقلبا وسط دوي
 الانفجارات الى الحدود الاردنية . وتميز الاسرائيليون من الغيظ
 بعد أن حرموا أبد الدهر من استعمال الذخائر الحربية التي استولوا

*Distinguished Service Order .

عليها في الفالوجة . ولكنّ صاحبنا لم ينل هذه المرة وسام D.S.O !
ولنعد الآن الى الهجوم الاسرائيلي على العقبة . ان تحسناً ما لم
يطراً على الوضع عندما حان وقت الظهيرة . ولم يقيم الاسرائيليون
بأيما حركة صاعقة . لقد بدوا ، على عكس ذلك ، وكأنهم يتقدمون
وئيداً وئيداً ، ناشرين جناحيهم ، حاشدين دباباتهم وسياراتهم
المصفحة في الوسط . وعلى سطح القلعة كانت الحامية العربية قد
نصبت مدفعي لويس (طراز ١٩١٥) ومدفعي مورتز (طراز
١٩١٥ ايضاً) .

ورسم خطّ نظريّ على طول الرمال ، يبعد ثلاثمئة متر عن
القلعة . حتى اذا اجتاز الاسرائيليون ذلك الخط تعرضوا لكل ما
كان في طاقة العرب ان يقذفوه به . ولم يكن ذلك شيئاً كثيراً .
وتابع الاسرائيليون زحفهم ، تتقدمهم الدبابات وهي تهدر
وتضجّ فوق الرمل ، وتحيم من خلفهم سحابة من غبار كانت
ترتفع في ببطء وتسدل حجاباً من الظلام على كل ما وراءها . وعلى
سطح القلعة ، تحفز الجنود العرب للعمل وقد عصفت في نفوسهم
نشوة التوقع . وفحصوا مدافعهم ليتأكدوا من استعدادها الكامل
للعمل ، كما فحصوا قذائفهم العتيقة . وعند الطرف الغربي من
السطح راح قائد الحامية يراقب الدبابات الزاحفة من خلال منظاره
الحربي .

وصاح بعضهم :

« وحقّ الله ، لقد أقبلوا ! »

وقال آخر :

« سوف نقضي عليهم بأذن الله ! »
وأخيراً وثب قائد الحامية صائحاً :
« أمطروهم بناركم ، أيها الشباب ! »
وفي الحال قصفت مدافع الحامية العربية ، ورفع قائدها مدفع
« تومي » وأمطر المهاجمين بناره الحامية .
وكانت القوات الاسرائيلية محجوبة بالغبار وبالرمل الذي
رفسته الدبابات والسيارات المصفحة . أما الآن فقد غدت الدبابات
والسيارات نفسها محجوبة عن النظر بعد ان اثارت قذائف المدافع
ينابيع من الرمل في الهواء . وحتى قذائف الـ « مورتير » ، انفجرت
برغم عتقها . وطوال عدة دقائق ، تواصل المطر الرصاصي ، ولكنه
كان آخذاً في الضعف شيئاً بعد شيء بسبب من نفاد الذخيرة . وكان
واضحاً ان الهجوم الاسرائيلي قد توقف . وفي تلك اللحظة من
الصمت النسبي ، دوّى في الجو هدير طائرات ، واستدار افراد
الحامية العربية على ظهورهم وحدّ قوا الى السماء ، المتوهجة بأشعة
الشمس ، محاولين أن يحددوا مواقع الطائرات ، وكانوا على مثل
اليقين من انها اسرائيلية .

ولكن الطائرات التسع لم تكن اسرائيلية . كانت طائرات
بريطانية وصلت في الوقت المناسب . اذ ما كادت تقلع من فوق
برزخ سيناء حتى تقدمت احدى الدبابات الاسرائيلية وأطلقت من
مدفعها قذيفة واحدة على القلعة . واصابت القذيفة القلعة عند نقطة
تبعد بضعة اقدام فحسب عن وسطها ، واخترقت اربعة من جدرانها
مندفعة نحو الصحراء الواقعة ضمن حدود المملكة العربية

السعودية ، حيث انفجرت آخر الامر . لقد كانت هي القذيفة المدفعية الوحيدة التي أطلقت في تلك المعركة . وعندئذ انكفأت القوات الاسرائيلية ، مخوذة في الرمل ، الى وادي عربة وما وراءه ، تراقبها الطائرات البريطانية من الجو .

وبعد ساعة انقضت على انسحاب الصهيونيين الى الاراضي الداخلة في دولتهم وصلت اولى النجيدات التي بعث بها الجيش الاردني الى القلعة . ولم يكد الليل يهبط حتى كانت القلعة تنتظم ما يزيد على مئتي مقاتل ومدفعية ميدان خفيفة . وكانت طائرات سبيتفاير البريطانية قد رابطت في المطار العتيق ، واحتل البريطانيون البناء الحكومي الذي اشرنا اليه آنفاً .

وفي صباح اليوم التالي أقحمت ناقلتان بريطانيتان من ناقلات الاعتدة والجند انفيهما في الساحل الرمي ، وكان على ظهرهما دبابات وكتيبة من كتائب لنكولنشاير . وغص المطار الصغير بمجموعة اخرى من الطائرات ، كانت هذه المرة قاذفات خفيفة . وكانت الدبابات - وعددها ثمان - من النوع المعروف بال Crusaders ومن الطراز الاحدث . فلم تكد تهبط المكان حتى احتفرت لنفسها مواقع في الرمل فليس يبدو منها غير ابراجها ، منشئة بذلك « خط ماجينو » متحركاً قبالة البلدة . وفي محاذة الدبابات شق افراد كتيبة لنكولنشاير عدداً من الخنادق واقاموا ثكنات ومطبخاً وبيوت خلاء . وفي البلدة نفسها كان مخزن من مخازن « نافي » قد بدأ أعماله فهو يوزع شفرات الخلاقة ، والطعام المحفوظ في العلب ، والويسكي الاسكتلندية والكندية ،

وورق الكتابة ، وغيرها على من يؤهلهم وضعهم لذلك .
وأذكر ان ثمن الزجاجة الواحدة التي تتسع لربع غالون
كامل من الويسكي الكندية كان نحواً من دولار وخمسة وسبعين
سنتاً .

وفي ذلك الاصيل اقتربت من رأس الخليج سفينتان حربيتان
بريطانيتان ، أو مدمرتان ثقيلتان ، وألقتا مراسيهما فيه . وفي الحال
أديرت مدافعها ووسلّطت على أمّ شرش والطريق الى وادي
عربة . وكان نفر من جنود الدبابات البريطانيين قد خدم في
فلسطين خلال فترة الاختطاف والقاء القنابل فهم غير نزاعين لان
يقفوا موقف العطف على الصهيونيين . لقد تشوقوا الى ان يروهم
يهجمون لانهم كانوا على اتم الاستعداد للردّ عليهم وكأنما يتوقعون
« رومل » نفسه . ولكن آمالهم منيت بالخيبة . لان الصهيونيين
ما لبثوا ان ولوا الادبار خلسة ، بعد بضعة أيام ، تحت جنح
الظلام . وبعد اسبوع انقلبوا الى مراكزهم مخفي حنين .

وفيما ظلّ آخر الصهيونيين هناك كقوة رمزية ، وفدّ اثنان من
مراسلي الصحف الى مسرح الحوادث . ذلك بان الراديو الاسرائيلي
اعلن - فيما لم تأت اياما انباء عن الحوادث من شرقي الاردن - ان
الصهاينة أحرزوا نصراً عظيماً في العقبة واحتلوا الميناء . فما كان
من لويس هيرن Herne مندوب « التامس » اللندنية ، وكينيث
بيلي Bilby مندوب ال « هيرالد تريبيون » النيويوركية إلا ان
فارقا الحياة الناعمة الباهظة النفقات في اسرائيل ليوافيا صحيفتيهما
بانباء المعركة . وهكذا هبطا عمّان وحصلا من غلوب باشا على

جوازين أتاحا لهما السفر بالترولي من عمان الى معان ، ومن ثم الى
النقب الأشتر والعقبة بسيارة جيب في نحو عشر ساعات . وفي العقبة
لم يجدا مكاناً يبيتان فيه غير ثكنة القلعة ، لان الجنود البريطانيين
كانوا قد احتلوا الفندق . حتى اذا ألقيا نظرة على المكان الذي
جرت فيه الحوادث حاولوا ان يبرقا برواياتهما من عمان الى لندن
ونيو يورك . ولكنها لم يوفقا الى ذلك . لأن المراقبة الاردنية
كانت لا تجيز ان تصدر عن عمان اي رسالة برفقية إلا بعد ان تقتون
بتوقيع الملك عبد الله نفسه - او هذا ما كان يبدو على الاقل .
وعلى اية حال ، فقد أطلقت رسائل هيرن وبيلي ، آخر الامر ،
من عقابها ، ولكن بعد فترة غير يسيرة . فلا عجب اذا استثار
ذلك الصنيع حنق المراسلين وثورتها . (ولقد لقي غلوب باشا
المتاعب نفسها مع الرقابة الاردنية في كثير من الاحيان !)
والواقع ان « معركة » العقبة تكتنفها الاسرار بعض الشيء .
فقد بدا ، من عدد القوات الصهيونية المهاجمة ، ان المناورة كانت
تهدف الى الاستطلاع او الاستكشاف . يؤيد ذلك ان
غرنديل الواقعة جنوبي البحر الميت مباشرة استهدفت لهجوم
اسرائيلي آخر كان القصد منه ، في ما يبدو ، قطع السبيل
على الامدادات الوافدة من عمان الى العقبة ، او لعلمه ان
يكون مجرد مناورة لتحويل الانظار عن حقيقة الاهداف
الاسرائيلية . بيد أنه بسبب من ضعف القيادة الاسرائيلية
المركزية هذا الضعف الذي تجلّى في فترات الحرب الفلسطينية
كلها - لم يوفق الصهونيون الى تنسيق جهودهم تنسيقاً حسناً .

فقد وقع الهجوم على غرندل صباح اليوم السابع من آذار ، في حين وقع الهجوم على العقبة بعد يوم من ذلك التاريخ . وبكلمة ثانية ، لقد اراد الصهيونيون الاستيلاء على العقبة اذا ما استطاعوا اكراه حاميتها على الاستسلام . وبذلك يتم « أمر واقع » *fait-accompli* اسرائيلي نموذجي يناقشون على اساس منه في مؤتمر الهدنة برودس . فقد ادركت الحكومة الاسرائيلية ان مواجهة العالم بامر واقع تشكل اكثر من نصف معركة الدبلوماسية ، وان مهمة هيئة الامم المتحدة الرئيسية أشبه بمهمة الختم المطاطي ليس اكثر او اقل ! وأياً ما كان ، فقد كانت مباحثات الهدنة دائرة آنذاك ، وكان الاسرائيليون مصممين على ان ينسحبوا حالما تبدي الحامية العربية مقاومة ذات شأن . انهم ما كانوا يعرفون شيئاً عن هزال تلك الحامية . والذي يبدو ان التحية الهائجة الخازمة التي استقبلوا بها قد اكبرتهم هم على الاستسلام بدلاً من الحامية الاردنية الصغيرة .

وبعد بضعة ايام اخرى ، وصلت لجنة التحقيق التابعة لهيئة الامم المتحدة . وكان يرأس هذه اللجنة الدكتور بول مohn ، وهو سويدي قضى شطراً من الحرب العالمية الثانية في معسكر من معسكرات الاعتقال . كان رجلاً مهزولاً ذا قلب كبير و ارادة حسنة ، ولكنه في ما بدا لي كان عالماً اكثر منه رجلاً صالحاً لمثل هذه المهمة . وكان يعاونه كولونيل اميركي ، وضابط فرنسي يحمل الرتبة نفسها ، وجنديان آخران احدهما اميركي والآخر فرنسي . وكان مع اللجنة وحدة اذاعية اميركية

كاملة ، فلم يكد البريطانيون ينسحبون من فندق العقبة حتى امتلأ
من جديد بالاميركيين والفرنسيين . أما انا فبقيتُ مع جيوفري
كروكر في القلعة . وكانت البلدة خلواً من الطعام تقريباً . ولقد
شعرنا بان صاحبنا قائد الحامية العربية اقدر منا على ضمان القوات
اليومي ، فعهدنا اليه في هذه المهمة .

وبعد اسبوع قضيته في الشكنات أصبت بالحمى وارتفعت
حرارتي ارتفاعاً عالياً ، ولم أعد قادراً على ان اصنع شيئاً . وعالجني
كروكر بالعرق وعصير الليمون الحامض ، ولكن ذلك لم يجديني
فتيلاً . وأخيراً استدعى الطبيب العسكري البريطاني للعناية بي .
وبعد ان تناولت بضعة اقراص من الدواء الذي وصفه لي
استعدتُ نشاطي في سرعة أثارت شكوك الطبيب . ولكن ذلك
أفقدني على اية حال اياماً عديدة ، وفصل ما بيني وبين الاحداث
الجارية .

وكانت لجنة التحقيق الدولية قد نشطت نشاطاً كبيراً وحصلت
على معلومات وافية ضمنتها تقاريرها . والواقع انها علمت احسن
العلم بزحف القوات الاسرائيلية من بير السبع . ومن اجل ذلك
ما كاد تقرير الدكتور مون ينشر في نيويورك حتى دهشنا جميعاً
لأن نكتشف ان الاسرائيليين لم يتخطوا الحدود المصرية على
الاطلاق ، واذن فهم لم يخرقوا احكام الهدنة ! وأمام هذا
التشويه الكامل للوقائع اتضح لنا ان هيئة الامم المتحدة كانت
قد انتهت الى هذا الاستنتاج العجيب : وهو ان الدبابات
والسيارات المصفحة الاسرائيلية كانت لها اجنحة ، وانها طارت

من بير السبع طبرانا ، على الرغم من ان السؤال عن الشيء الذي كانت عمله عبر الحدود في الاردن 'ترك من غير ما تفسير . واستاء العرب اعظم الاستياء ، طبعاً ، وعصفت في نفوس بعض الاميركيين في المنطقة ثورة حانقة .

وحوالى الفترة التي 'نشر فيها ذلك التقرير الدولي قصدت لمقابلة المايجور هورنزي Hornsby (« بوبلز » Bubbles) الذي قاد الكتيبة الاردنية في غرنديل ، يوم السابع من آذار . وكان المايجور الشاب متحدرًا من رجل نال شهرة كبيرة في شبه الجزيرة العربية ، ولم يكن هو ليعمل أيما عمل يكسف من لمعات اسمه . وحين هاجم الاسرائيليون غرنديل صباح ذلك اليوم من آذار كان هورنزي على رأس قوة أردنية صغيرة كانت تعمل حول غور الاشرم وهي الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقي من البحر الميت . وغرنديل مفترق طرق . فأما الطريق الأفقية فتقود الى ارض منحدرية كان للبريطانيين فيها ، ذات يوم ، مستودع للمعدات الحربية ، واما الطريق العمودية فتؤلف حلقة الوصل ما بين عمان ومعان . وليس ثمة شيء في الجوار ، حتى ولا قرية او نبع ماء . ومن هنا كان واضحاً ان الهجوم تكتيكي المغزى اكثر منه عملاً حربياً 'قصد به الى العدوان . ولم ينسحب المايجور البريطاني وجنوده الاردنيون الاثنا عشر . بل تخيروا لانفسهم موقعاً خلف مرتفع رملي وانتظروا وصول المصفحات الصهيونية . حتى اذا اقبلت الشاحنات وسيارات الجيب والسيارات المصفحة الاسرائيلية (لم تشترك الدبابات في هذا الهجوم فقد كانت الارض وعرة جداً)

واقتربت من موقع القوة الاردنية جوبت بسد من رصاص .
واستولى الأردنيون على مجموعة حسنة من الاسلحة الاوتوماتيكية ،
واخذ الجنود الاسرائيليون يتساقطون من شاحناتهم كما تتساقط
أكياس الخطة . وفي خلال دقيقتين اثنتين تقوَّض الهجوم ،
واختفت القوة الاسرائيلية خلف الكثبان .

وفي الصباح التالي شن الاسرائيليون هجوماً جديداً .
فبعد ان اكتشفوا وجود القوة الاردنية في ذلك الموقع
استاقوا مدفعيتهم الى هناك . وكان لديهم كل شيء .
كان معهم ، وفقاً لشهادة المراقبين ، كل شيء ما عدا
مدافع الحصار الضخمة من نوع برتا: مدافع قياس ٧٥ مم ، ومدافع
قياس ٨٨ مم ، ومدافع قياس ١٠٥ مم ، وعدد من المدافع
السريعة الطلقات المضادة للدبابات ، وبعض المدافع المضادة
للطائرات . ومن الساعة صباحاً حتى الظهر اطلقوا ستاراً من نار
المدفعية فوق رمال غرنديل نشر سحابة من الدخان والرمل فوق
مسرح المعركة . وعند الظهر تماماً كفّ الاسرائيليون عن اطلاق
النار ، وتقدمت ناقلاتهم الحافلة بالجنود نحو الموقع للاستيلاء عليه من
ايدي العرب . ولكنهم لم يجدوا احداً طبعاً .

ذلك ان بوبلز وجنوده كانوا قد غادروا الموقع الذي رابطوا
فيه في اليوم السالف ، وانتقلوا الى موقع جديد عند سفح كتيب
يبعد ثلاثمائة ياردة عن الموقع الاول . ومن هناك انشأوا يراقبون
حركات الاسرائيليين ويهدرون ضاحكين ملء أشداقهم . ولقد
قدروا أن ستار النار الذي نشره المهاجمون فوق رمال الصحراء

قد كلف الصهيونيين الاميركيين مئة الف دولار على الاقل .
وفوق ذلك ، فقد مزقت شظايا القذائف عجلات سيارات الجيب
وناقلات الجند الاسرائيلية شراً ممزق ، فغنم الجيش الاردني ما يزيد
على عشرين سيارة نتيجة لذلك الهجوم العابت ، لان الاسرائيليين
ما كادوا يكتشفون أن القوة الاردنية قد أخلت الموقع حتى
انكفأوا الى اسرائيل ، واختتمت المعركة .

واحق أن هذه الواقعة كانت آخر معارك الحرب . فمن ذلك
الحين وقعت بين اسرائيل والدول العربية (ما خلا العراق الذي
ما يزال في حرب مع الاسرائيليين) سلسلة متعاقبة من الهدن
أقامت سلباً تقنياً ، سلباً كان الاسرائيليون قد خرقوا حرمة ،
قبل ذلك ، خرقاً متكرراً من طريق العدوان الاقليمي ،
واعمال الخطف ، وشن الغارات .

٩. اسرائيل سرطان ...

عقدت مصر الهدنة مع اسرائيل في الرابع والعشرين من شباط. وبعد ذلك التاريخ جعلت التطورات السياسية والعسكرية في الشرق الاوسط مركز العرب حرجاً الى حد بعيد. لقد واجهوا في رودس مندوبي اسرائيل المتصلين بالمتعنتين، ولم يعمل رالف بانس الوسيط الدولي شيئاً يكون من نتيجته تحسين الوضع تحسناً حقيقياً. ذلك بان الاسرائيليين، وقد استشعروا ان البيت الأبيض من وراءهم، ما كانوا مستعدين للتساهل في شيء على الاطلاق. وفي غمرة من العجز، وبسبب من فقدان حكومة قوية في كلا البلدين، اضطر شرقي الاردن واضطرت سورية، آخر الامر، الى قبول الهدنة.

وفي عمان، كان مركز الملك عبدالله بائساً حقاً. كان افراد رعيته يتجادلون في موقفه من الحرب، وكان تدفق مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين (الذين كانوا ناقلين على سياسته اشد النقمة بسبب من انسحاب القوات الاردنية انسحاباً مخفوفاً بالاسرار في نوار ١٩٤٨) على مملكته قد زاد في متاعب العرش. ففي نوار ١٩٤٩ كان في البلاد الاردنية عدد من اللاجئين الفلسطينيين يعدل

عدد سكانها الاصليين . لقد كان سكان الاردن ٤٠٠،٠٠٠ نسمة
في كانون الثاني من عام ١٩٤٨، فأمسوا بعد عام واحد ٨٠٠،٠٠٠
نسمة وزيادة .

ومن الناحية العسكرية كان مركز الاردن سيئاً جداً . فلم
يكن لدى الجيش ذخيرة حربية ، ولم يكن البريطانيون يمدونه
بالعتاد الا مدداً شحيحاً . ولم يكن لدى المملكة الاردنية سلاح
جوي عسكري . ولم يكن عندها من سلاح الدبابات والمصفحات
غير تلك السيارات المصفحة التي أبلت بلاءً باهراً في انقاذ القدس
القديمة . وعلى الرغم من تعزيز الجيش بعدد وافر من المجندين الجدد
فقد كان الفقر الى الاعتدة يُفقد هذا الكسب اهميته ويُخرجه من
الحساب .

وكانت الحال في دمشق لا تقلّ سوءاً عنها في عمان . وكانت
زعامة الرئيس شكري القوتلي غير الحاسمة قد قوّضت دعائها
بسبب من الحرب الفلسطينية . وتفصيل الامر ان الجيش السوري ،
المتحرر حديثاً من سلطان الفرنسيين ، لم يكن مزوداً بأكثر من
مقادير رمزية من اعتدة عتيقة ثمّانة ، وكان يشكو نقصاً كبيراً في
عدد الضباط ومن دونهم من الجنود . فبينما كان الجيش الاسرائيلي
غنياً بالقوات المتمرسّة التي خاضت غمرات الحرب الحديثة ،
معزّزاً بمئات من العساكر الاجنبية المرتزقة ، مزوداً بأوفر
السلاح وأشدّه فتكاً بعد الهدنة الاولى كان جيش سورية غير
المنظم ، وجيش الاردن البوليسي يعانيان نقصاً في العدد والقيمة .
والحق ، أنه لم يكن ثمة ما يمكن ان يُعمل . كانت الروح وثابة ،

والكن لم يكن وراءها شيء مادي يدعمها .
وهكذا وقع لبنان الهدنة مع اسرائيل في ٢٣ آذار ، وتبعته
المملكة الاردنية في ٣ نيسان . وكانت سورية آخر من وقّع ،
منهية النشاط الحربي الفعلي في العشرين من تموز ١٩٤٩ . وهكذا
اختتمت الحرب الفلسطينية جزءاً بعد جزء ، وجبهة بعد جبهة .
وفي تلك الاثناء كانت دمشق تشهد أحداثاً ذات شأن . فبعد
توقيع الهدنة اللبنانية الاسرائيلية حدثت في سورية حدى ثوراتها
المعجزة التي لا يكاد يصاب فيها أحدٌ بسوء . ففي الصباح الباكر
من يوم ٢٩ آذار ، تقدمت مجموعات من السيارات المصفحة
والدبابات الصغيرة تقدماً هادئاً الى المراكز المعينة لها في مختلف
ارحاء دمشق ، وهناك انتظرت اوامر جديدة من الزعيم
(الكولونيل) حسني الزعيم قائد الجيش السوري في الجبهة
الفلسطينية . وكان الزعيم حسني هذا ، وهو كردي قصير بدين
من حلب ، يبتغي الاستيلاء على مقاليد الحكم . وكان الى جانبه
نفرٌ قليل من كبار الضباط السوريين عُرفوا بكل بساطة
بـ « الزعماء » (جمع زعيم اي كولونيل) .

ومن غير ما لجو الى العنف اقتيد الرئيس القوتلي ومختلف
عضاء حكومته من فرشهم الدافئة وألقي بهم في السجن . اما
الرئيس فقد احتجز بسبب من سنه العالية وصحته المتهللة ، في احد
المستشفيات . وعند الساعة السادسة كان الزعيم حسني الزعيم يرأس
الحكومة السورية ، وحل البرلمان السوري ، وأعلنت الاحكام
العرفية ، واذاع رئيس الدولة الجديد ثلاثة بيانات في الناس حذرهم

فيها من الاتيان بأيما عمل ضد الانقلاب وطمانهم الى سلامتهم اذا
ما اخلوا الشوارع عندما يحين موعد منع التجول .
ولم يصب احد بأذى ، في ما يبدو ، على الرغم من ان احد
الاوروبيين ، وكان ينزل في فندق « اوريان بالاس » المواجه
لمحطة السكة الحديدية والمجاور لعدد من دور الحكومة السورية ،
أخبرني أنه افاق ذلك الصباح كالعادة ، و نعيم بقطوره ، شأنه
كل يوم ، ثم ارتدى ملابسه واندفع في نشاط بالغ الى الشارع . .
وتابع محادثي كلامه فقال انه ما كاد يخرج من الفندق حتى لقي
أمامه مباشرة دبابه موصدة البرج . وكان ينبثق من برج الدبابه
مدفع ، بدا وكأنما كان يحملق في فمه المفتوح . وفي الحال انقلب
راجعاً الى الفندق ، ففقد المدفع اهتامه البالغ به ، وراح يحدق
الطرف في مكان آخر . وباستثناء بضع صدمات عصية مشابهة لم
يسقط ضحية الانقلاب أحد قط ، في تلك الآونة ، على الاقل .
وبعد ايام قليلة سعدت بمقابلة الزعيم حسني الزعيم . وكانت
الحدود السورية اللبنانية والحدود السورية الاردنية قد أغلقت
بسبب من شعور الزعيم بان موقف الحكومتين الاردنية واللبنانية
من اسرائيل كان ضعيفاً باكثر مما ينبغي . وهكذا كان القاصدون
الى دمشق عبر جبال لبنان الفاتنة يجدون انفسهم مضطرين الى
التوقف عند الحدود السورية في سهل البقاع الذي لا يقل فتنةً
وجمالاً عن الجبال اللبنانية . اما القاصدون الى دمشق من شرقي
الاردن - شأني انا - فكانوا يُصدون عن سبيلهم في درعا حيث
لم تكن فتنة او سحر كاللذين يتعزى بهما المسافرين من طريق بيروت .

وايا ما كان ، فقد كان الدخول الى سورية يقتضي ان تكون لك
صفة ديبلوماسية رفيعة . ولكن وطأة هذه القيود ما لبثت ان
خفت لحسن الطالع .

وكان برنامج الزعيم جيداً في ما يبدو . كان يعتزم ان يقدم
الى سورية دستوراً جديداً يحقق كثيراً من وجوه الاصلاح ، وفيها
منح المرأة السورية حق التصويت في الانتخابات النيابية . واسهب
الزعيم في الكلام حول هذا الموضوع ، فقال لي بالفرنسية وفي
ابتهاج عارم :

« ان نساء سورية سوف يرتدين الملابس الاوروبية . انهن
سوف يرقصن في الشوارع ! »

ولكن كان ثمة شيء في سياسة حسني الزعيم لم يحظَ برضا
الشعب ، وهو ربط سورية بتحالف وثيق العرى مع فرنسا .
وليس من ريب في ان الذي حدا بحسني الزعيم الى اتخاذ هذا
الموقف هو رغبته ، في المحل الاول ، في تعزيز الجيش السوري
لتمكينه من الصمود في وجه اسرائيل ، على الرغم من انه قد
تكون ثمة حوافز اخرى . وأياً ما كان ، فقد تراءى للشعب
السوري ان الزعيم كان يسعى لاعادة السيطرة الفرنسية الى البلاد ،
ولم تكن قد انقضت غير فترة يسيرة على تحررها من نيرها ، بيد
ان ذلك مجرد وهم . والواقع ان تشوش السياسة في الشرق
الاطلسي ظاهرة لا أعتزم ان افيض في الكلام حولها ، ولست
بقادر على ذلك . ولكن حين أوصد حسني ميناء اللاذقية في اواخر
شهر نوار وبدأ فيض فجائي من العتاد العسكري الفرنسي يظهر في

ميادين حلب وحمص وحماء ساورت الناس شكوك جديدة ، ولعل
هذه الشكوك ان تكون هي السبب في مصرع الزعيم في منتصف
شهر آب من السنة نفسها . وكان الرجل الذي حكم عليه بالموت قد
اشترك معه في خلع شكري القوتلي ، أعني الزعيم سامي الحناوي .
تلك صورة عن الوضع الداخلي في البلاد العربية . وفيما لم يجابه
الملك عبدالله بأيما ثورة علنية فليس يدري أحد الى أي مدى
كانت سلامته رهناً بالتفاف الجيش الاردني حوله . وليس من
ريب في ان عاصمته عمان كانت تغص بمخيمات اللاجئين ، وان مخيمات
أخرى كانت تنتصب قرب قصره الشتوي في الشونة ، وفي اريحا
بحيث لا يكون في ميسوره ان يتجاهلها حتى ولو رغب في ذلك . .
والواقع ان الملك عبدالله بذل كل ما في وسعه من جهد
لرفع معنوية اللاجئين البائسين الذين أضحوا ، فجاءة ، من غير
مأوى ، ومن غير ممتلكات أو مال . فكانت قطعان من الغنم
تساق ، على نحو مطرد ، الى مخيمات اللاجئين ، تعزيزاً لاعمال
الاغاثة التي كانت تنهض بها جمعية الاصدقاء (الفرنندز) الاميركية
والصليب الاحمر الدولي . ولكن برغم هذه الجهود الجبارة كان
ما بذل من نشاط في إغاثة اللاجئين دون الكفاية بكثير ، فأذا
بكل من المعسكرات يشهد اسبوعياً مصرع عدد من اولئك
البائسين بسبب من المجاعة والعري . وكان شتاء سنة ١٩٤٩
وربيعها من أسوأ ما شهدته تلك المنطقة في تاريخها الحديث ،
وكانت الصحراء منقطة بأجساد المملان وصغار الجمال التي صرعاها
الصقيع .

وكان الدكتور بانس قد رجع ، في تلك الاثناء، الى الوطن ،
تاركاً الميدان للجنة الهدنة المختلطة في دمشق . وكان يرأس هذه
اللجنة الجنرال وليم رايلي ، الذي اتخذ من الدور الثالث في فندق
« اوريان بالاس » مقراً عاماً له ، وأشرف على نشاط المراقبين
الدوليين ، على اختلاف فرقهم ، من هنا . وكان قد اتضح في
الحال ، تقريباً ، أن اسرائيل لا تعترم احترام اتفاقيات الهدنة
المتعددة اذا ما رأت ان من مصلحتها خرقها او تجاهلها . وهكذا
غزيت القرى العربية ودمرت على نحو موصول ، وطرد
سكانها الى مناطق اخرى ، وضمت الى الاراضي الاسرائيلية
بمختلف الحجج والذرائع . وهذه الاعتداءات هي من الكثرة
بحيث يكون من العبث تقديم لائحة بها في هذا المجال ، وهي
مدونة كلها في سجلات هيئة الامم المتحدة . وكان كل احتجاج
تقدمه الدول العربية على هذه الاعمال العدوانية لا يشير عند
حكام تل ابيب غير الاستهتار وتخويف الوقائع ، ولا يخلق في
ليكسكس غير قصة ملفقة في عناية بالغة . ولكن اسرائيل
ما كان في استطاعتها ان تخدع الناس القويين من مسوح
الحوادث . ومن هنا جعلت تلك الاعتداءات من المراقبين
الدوليين جماعة لم يعرف هذا العصر اشدّ منهم نقمة على
الصهيونيين وعداوة لهم .

ولعل ابلش حوادث العدوان هذه ما ترتكبه « شركة تجفيف
بحيرة الحولة » على الرغم من أن غيرها لا يقلّ عنها اذى وضرراً .
وتقوم بحيرة الحولة عند الطرف الشمالي الاقصى من وادي عربة .

في حين ان العقبة هي الطرف الجنوبيّ الاقصى في اوراسيا * .
وتقع الحولة حيث يبدأ الاردن . وإنما يغادر الأردن (الذي حرّف
الصليبيون اسمه الى «جوردان» Jordan) بحيرة الحولة نهراً صغيراً
ينساب في هدوء مسافةً غير طويلة ليندفع بعد ذلك فجأةً الى
المضايق والشلالات التي تنخفض وشيكاً بالنهر المتضخم حتى تنتهي
به الى بحيرة طبريا . وبعد ان يفارق هذه البحيرة يتخذ سبيله المتعرجة
الى ان يختفي عن العيان في البحر الميت . اما المضيق الناشئ عن
تقلص قشرة الارض وعن الزلازل وغيرها فيستمر في اتجاه
الجنوب حتى العقبة .

وتطراً على ضفة نهر الاردن خلال سيره تغيرات جذرية ، فهو
يبدأ عذباً بمياه الينابيع والجداول المحتشدة من سفوح جبل حرمون ،
ثم يجمع مقادير من المعادن القلوية خلال انحداره من ارتفاع يبلغ
نحواً من مئتي قدم فوق سطح البحر ، حتى ينتهي الى تحوّلته النهائي
حين يصب في البحر الميت المنخفض نحواً من ١٣٠٠ قدم تحت
سطح البحر . ونسبة المواد القلوية * في نهر الاردن هي التي تقرر
ما اذا كان في ميسور الغلال ان تنمو على ضفافه ، التي هي عربية
طبعاً ، أم لا . وبحيرة الحولة سورية في معظمها ، ولكنها مجاورة
لاسرائيل جزئياً ، ولقد قام الصهاينة باعتداءات متعاضمة في تلك
المنطقة برغم أنف الهدنة . ولو قد استطاعت اسرائيل ان تجفف او
تحوّل مجرى الينابيع العذبة المجتمعة في بحيرة الحولة - البالغة

* اروبة وآسية منظوراً اليهما كوحدة . [المغرب]
* من المعروف ان المواد القلوية تنزل بالزراعة أذى كبيراً . [المغرب]

مساحتها مئة أميال مربعة - اذن لاستطاعوا ان يزيدوا في نسبة المواد القلوية في الاردن الادنى ، وبذلك تغدو الاراضي التي تتميز اليوم بالحصب أراضي مجدبة ، وتهجر المدن الزراعية القائمة اليوم على ضفاف الاردن ، والاراضي المروية المجاورة لها .

وذلك ، في ما يُفترض ، هو الهدف الذي يرمي اليه الاسرائيليون . فما إن تهجر القرى حتى يهرع الصهاينة الى الاراضي القاحلة ، ويفتحوا سدودهم . وحين تستعيد المياه غدوبتها ، ينبت الزرع من جديد وتكون اسرائيل قد ضربت ضربةً غادرة جديدة . ولقد احتجت الحكومة الاردنية احتجاجات متوالية لدى الامم المتحدة ، على هذه الاعمال العدوانية ، ولكن تلك الهيئة العاقرة لم تحرك ساكناً ، ولم تعمل عملاً .

والواقع ان « شركة تجفيف بحيرة الحولة » باشرت اعمالها منذ فترة من الزمان . وكانت الخطة تقصد ، في الاصل ، الى تجفيف البحيرة « مكافحةً للملاريا » . ولكن هذه الذريعة نُسيت اليوم ، في ما يظهر ، فأسرائيل تزعم انها تقوم بمحاولة « استصلاح للارض ابتغاء تعزيز امكانياتها الزراعية » . وليس من ريب في ان اسرائيل في حاجة الى الاراضي الزراعية لكي تغذي مشاريعها الخاصة بالهجرة على نطاق واسع ، ولكن ليس يمكن ان يكون ثمة مبرر شرعي لارتكاب هذه الجريمة الجديدة ضد العرب لأن مساحة الستة الأميال المربعة لن تفيد اسرائيل شيئاً إذا لم تُضف اليها الأراضي العربية القائمة على ضفتي الأردن ايضاً . وثمة قول بأن شركة تجفيف بحيرة الحولة انما جمعت اموالها في نيويورك ، ولكن

هذه الشركة هي على أية حال، شأن كل شركة من شركات استصلاح الارض في اسرائيل ، ملك لحكومة تل ابيب .
وحكومة سورية والاردن تدركان اتم الادراك مطامع اسرائيل التوسعية هذه ، وتتوقعان دائماً أن تقوم بعدوان جديد على خطوط الهدنة من اقصى الشمال حتى خليج العقبة حيث انشأت تل ابيب « ميناء عميق المياه » عند مأوى ذلك الصيد القديم الذي اشرنا اليه آنفاً ، واطلقت عليه اسم « إيلات » الجاهز . وتحمّل المياه الى هناك على متون الطائرات ، لانه ليس ثمة ينابيع او طرق بين بير السبع و « ايلات » . ولقد وفق نفر قليل من الاسرائيليين المغامرين الى ان يبنوا آخر الامر بيوتاً لهم حقيرة في ذلك المسكن القصي ، فهم يأكلون من علب الطعام المحفوظ التي تلقى اليهم بواسطة المظلات . اما في موضوع « الميناء العميق المياه » فنحب ان نخص ههنا على ان الطرف الشمالي من خليج العقبة يضاهي زميله الفارسي ضحولةً ، وان الجزء القابل للملاحة من ذلك الخليج انما يبدأ في المنطقة العربية .

ان دولة اسرائيل سرطان أقبح ظهماً وعدواناً ، وفي كثير من العنف ، الى الشرق الاوسط . ولكنها بخلاف السرطان لا تستطيع ان تحيا الى ما لا نهاية له على حساب جيرانها ، ولا بد لها من ان تموت آخر الامر ما دامت لا تملك في ذاتها مقومات الحياة . لقد قيل ان دافيد بن غوريون تباهى يوماً بان « حدود اسرائيل تقع على ضفاف الفرات » . وسواء أكان بن غوريون قد

قال ذلك حقاً ام لم يقله ، فالذي لا ريب فيه ان مسلك اسرائيل كله يؤذن بانها تهدف الى هذه الغاية . وفي الوقت نفسه تحاول اسرائيل ان تحشر ما يزيد على مليون تاجر من اهل المدن في ثلاثة ارباع بلده لا يستطيع كله ان يحتمل نصف ذلك العدد . وليس ثمة في اسرائيل ايما تصدير صناعي ، ولن يكون شيء من ذلك ممكناً ، ما دام يتعين على اسرائيل - حتى لو استطاعت انشاء صناعات قوية - ان تتنافس في هذا الميدان مع فرنسا وبريطانية والهند واليابان . وإذا كانت صناعات اسرائيل تعاني منذ الآن ارتفاعاً متضخماً في أجور العمل ، فالمستقبل يبدو من هذه الناحية غير مشرق البتة .

لقد تردد في الصحف الاميركية ان في النقب وغيرها من الاراضي الداخلة في حدود اسرائيل إمكانات نفطية حسنة . ولكننا نحسب انه لو كان ذلك صحيحاً اذن لكان خليقاً به ان يثير اهتمام دوائر المسح الجيولوجي في حكومة واحدة على الاقل وفي كثير من شركات البترول ، ويوقع في قلوبها الغبطة والابتهاج ... وأخيراً أشار الى موارد البحر الميت كثروة وطنية تدعهم مستقبل اسرائيل الاقتصادي . ولكن على الرغم من وجود المغنيزيوم والبرومين وغيرها من المعادن في البحر الميت فإن اسرائيل لا تستطيع التفرّد في استغلال هذه الموارد وفقاً لاحكام القانون الدولي الذي يحرم على الدولة التي تحتل جزءاً من جسم مائي مغلق تملكه عدة دول ان تستقل بالقيام بأي تدبير من شأنه ان يؤثر في مستوى المياه او في خصائصها الطبيعية .

والحق ان اكثر من سبعين بالمئة من سواحل البحر الميت يقع ،
وفقاً لاتفاقية الهدنة الاردنية الاسرائيلية ، في الاراضي الاردنية ،
فهو ملكٌ خالصٌ لها .

وعلى الجملة فان الوضع يبدو عجيبيّاً الى حدٍّ متطرف . لقد
ابتليت فلسطين فجأةً - وهي منذ القدم بلدٌ عربي - بذلك
الشعب الاجنبي العدواني الغريب عنها غرابته عن مانهاتان
نفسها . وهو شعب لا موارد له ، شعبٌ عالةٌ على الاموال
الاجنبية التي ترده من وراء البحار .

إن اسرائيل لن تعمّر طويلاً . واذا ما سمح لها بذلك
فعندئذ يكون بقاءها على قيد الحياة اعجوبة شريرة !

انتهى

عَلِمَ نَفْسَكَ

سُلْسِلَةُ كُتُبٍ مُبَسَّطَةٌ لِنَشْرِ الثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ
اخْتَارَ مَوْضُوعَاتِهَا وَنَقَلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
منير البعلبكي

ق.ل

صدر منها

- ١ . كيف تكسب السعادة لبرتراند راسل ١٥٠
- ٢ . قادة الفكر الحديث (الطبعة الثانية) كارل ماركس - برنارد شو الخ للاستاذ كوتس ١٥٠
- ٣ . علم النفس الحديث للاستاذ سارجنت ١٥٠
- ٤ . كيف تفكر للدكتور جيسون ١٥٠
- ٥ . القباء المرض والشفاء للدكتور كوبلاند ١٥٠
- ٦ . الحضارة الاوروبية للاستاذ شيفيل ١٥٠
- ٧ . أعمدة الاستعمار الاميركي (الطبعة الثانية) للاستاذ بيرلو ١٥٠
- ٨ . مصرع الديموقراطية في العالم الجديد للاستاذ البرت كان ١٥٠
- ٩ . فلسفة من الصين للفيلسوف لين يوتانغ ١٥٠
- ١٠ . قصص انسانية عالمية تشيخوف ، تولستوي ، الخ ١٥٠
- ١١ . ادفع دولاراً تقتل عربياً! (الطبعة الثانية) لورنس غريزولد ١٥٠

فهرست

ص	
٣	مقدمة
٨	١ . مع مواكب الحضارة
٢٨	٢ . من نشوء الفكرة الصهيونية الى دير ياسين ...
٥٠	٣ . عندما دعا اليهود ابطال الفالوجة الى الغداء !
٦٨	٤ . في السودان والبحرين والكويت
٩١	٥ . بين البصرة وبغداد
١٠٦	٦ . في عاصمة الرشيد
١٣٤	٧ . حديث مع غلوب باشا ...
١٦٠	٨ . في « المثلث العربي » بفلسطين
١٨٧	٩ . اسرائيل سرطان ...

٥٠٠٠ / ٥٤ / ٥ / ٢٠٠

29 OCT 1987

